(1)

نَصْبُ العَرَّادَة

عَلَى

جَهَالَاتِ المُتَطَاوِلِ عَلَى العَلَّامَةِ أَبِي قَتَادَة

بقلم الشيخ

أبي الحسن الأدني

حفظه الله

مؤسسة المسلة الإعلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة المأسدة الإعلامية

–تقدم–

.....الكتاب القيم.....

نصب العرادة

على

جهالات المتطاول على العلامة أبي قتادة

.....(الجزء الأول) .....

للشيخ : أبي الحسن الأزدي (حفظه الله)

والحـــقُّ لـــيس بنـــاجٍ فـــي جلالتـــــهِ
إلا إذا لاذَ بـــــــالبيضِ المـــــــــــآثيرِ
هـــــي الـــــدواءُ لـــــداءِ البغـــــيِ يَنْزِعُـــــــهُ
مـــــن النفـــــوسِ ويشـــــفيْ كـــــلَّ مَصْـــــدُورِ

شعر / أحمد محرم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم بمكنون الضمائر، الخبير بما تخفيه الصدور وتنطوي عليه السرائر، لا يعزب عن علمه مثقال الذر ولا ما دونها من أصاغر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم القاهر، شرع لعباده الشرع القويم الباهر، وعرفهم سبيل الفوز برضوانه فهو لاحب ظاهر، وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله النبي الأمي العاقب الحاشر، القائل: (إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي النُّهى والألباب والبصائر، ومن خَلَفَهُم من بعدُ بخيرٍ وكان على محجتهم البيضاءِ سائر.

أما بعد:

فقد تناهى إليّ خبر صدور كتاب (التبصير)، وما أقدم عليه كاتبه من طعن في الشيخ العلامة المناضل، أحد بقايا نور السلف الآفل، أبي قتادة عمر بن محمود الفلسطيني ثبته الله وفك أسره، وعجّلَ على ظالمه نصره، ورد إلى نحر عدوه كيده وشره ومكره.

فأسرعت بالوقوف على الكتاب لأرى آخر ما تفتقت عنه علمية صاحبِه، الذي ما وجدتُ له في قلبي مكاناً مذ طالعت بعض كتاباته! فأذهلني ما رأيتُ من جرأة ظاهرة، وجناية سافرة، ودعاوى عريضة، ونفسيةٍ مريضة!!

فرأيت التبصير قد حوى بين دفتيه من الأدواء الشيء الكثير! ورأيت صاحبه قد عبّ كأس التيه والعجب والغرور حتى لم يُبْقِ فيها حُثَالة، وتعاطى بذيء العبارات فزاد ضغثاً على إبّالة!

ففحصت عيناي لأتحقق أأقرأ لعاقلٍ صحيحٍ أم عاطبٍ ثَمِل!! يهذي ويفري ولا يدري ما اقترف وعَمِل!! وهل يدري من حاديه (اعرفوني) ومطيته (أنا)؟! أنّى يعرفُ ما جنى!!

حُقَّ والله لذلك الكتاب أن يكون مرجعاً لمن رام الوقوف على أدواء النفوس!

وقد رغب إلي غير واحد من إخواني بالرد على ذلك المتطاول، وما كنت بالذي يُسلم الشيخ الأسير ويخذله، فنفسي لنفسه فدى، ونحري دون نحره تستسهل الردى، كيف والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال كما في الصحيحين وغيرهما:

(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلِمه)، وفي رواية عند مسلم: (لا يظلمه ولا يخذله)، فهذا حق المسلم على أخيه لو لم تكن من رابطة إلا رابطة الإسلام، فكيف يكون الحال مع علم من الأعلام، له من الفضائل والأفضال، وشريف الخلال، وجليل الأعمال، ما لا يجحده إلا حاقد أو جاهل، وأياديه على أهل الدرب سابغة ضافية، وإن أنكرتها الأنفس اللئيمة فما هي بخافية، فكما قيل:

ينبـــوع زمـــزم بـــاقٍ فـــي تفجـــره ... مـــا غـــار مـــن أثَـــر الأهـــوال والغِيَـــرِ

ثم إن شيخنا الجليل مجتمعة على حربه أمم الكفر والردة، وقد تراكم عليه منهم البلاء والشدة، فأولئك الأراذل يعرفون قَدْرَه، ويعلمون منزلته وخطره، وبعض بني قومي لا تعرف الرجال، فالله المستعان وعليه الاتكال.

فلهذا وذاك كانت نصرته واجبة متعينة، والتصدي لمن تسول له نفسه مكالبة أعداء الله عليه فريضة متبينة، وإن كنت موقناً تمام الإيقان أن الشيخ لا يضره بفضل الله ذلك النَّزَق، ولا يُنقِص من قدره مشاغبات ذوي الخَرَق، فالشمس لا يحجب ضوءها الغربال، والبحر لا تكدره النجاسات ولو كانت بالقِلال، وإنما يؤذي نفسه مُطاول الرجال، والوعل تكسر قرنه مناطحة صخور الجبال، وعلى الباغي يحار الصِيَال!

والجـــواد الكـــريم يبقـــى جـــوادًا ... نـــابض الحِـــسِّ فـــي إبـــاءٍ ســـنيِّ
فهـــو صـــدر أيـــن مـــا كـــان وإن ... جلـــس الأذنـــاب فـــي الصـــدر النـــديِّ

وليعلم القارئ الكريم، والناظر الفهيم، أنه متطاولاً غرته نفسه قد خرج يفري في عرض الشيخين أبي قتادة وأبي محمد في العام المنصرم، فأجابه الشيخ أبو محمد المقدسي فك الله أسره بكلمات يسيرات من رأس القلم، أطارت صوابه وصواب حكومته التي خرج يرقع لها! فما لبثوا أن تآمروا عليه ودبروا له المكائد، فكان ذلك من أسباب سجنه عجل الله له بالفرج، وأجبت ذلك المفتري حينها ذباً عن الشيخ أبي قتادة بكتاب (الصوارم الباترة المشهورة في الذب عن رسالة معالم الطائفة المنصورة)، وها هو المداد لم يكد يجف بعد، ولم تنقض سنة كاملة على ما أثاره ذلك المتراجع المقبور، حتى جاء أبو حيّة النميري يحمل سيفه الخشبي ليبعثر التراب عن سلفه المدحور، ويتخندق معه في نفس حفرة السقوط، فيا فرحة أعداء الله به وبصنيعه!!

وأبو حية شخصية حقيقية حكى أهل التراجم حالها، وقد كان شاعراً فصيحاً مجيداً، وهو مع هذا أهوج جبان كذاب، حتى قال عنه صاحب العقد الفريد: كان أشعر الناس وأجنّ الناس!

وكان له سيف يسميه: لعاب المنية، لا فرق بينه وبين الخشب، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: (وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا محمد بن سلام الجمحي، قال: كان لأبي حية سيف يسميه لعاب المنية، لا فرق بينه وبين الخشبة، وكان أجبن الناس، فحدثني جار له قال:

دخل بيته ليلة كلب، فسمع حسّه فظنه لصاً، فأشرفت عليه وقد انتضى سيفه لعاب المنية، وهو يقول: أيها المغتر بنا

والمجترئ علينا، بئس واللَّه ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، يقول هذا كله وهو واقف في وسط الدار، فبينما هو كذلك إذ خرج الكلب فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانا حرباً[1]).

ومن سماتِ أبي حية أيضاً مع ما سبق من إطلاق الدعاوى الجوفاء، الخالية من كلِّ حقيقة، أنه إذا جُوبِه بالحقيقة وافتُضِح كذبه، رمى بالنقيصة والسوء على المُقابِل، ولم يرعوِ عن غيِّه وزعمهِ الباطل، قال الحافظ:

(وقال أبو محمد بن قتيبة: كان أبو حية النميري من أكذب الناس، فحدّث يوماً أنه يخرج إلى الصحراء فيدعو الغربان فتقع حوله فيأخذ منها ما شاء! فقيل له يا أبا حية، أرأيت إن أخرجناك إلى الصحراء يوماً فدعوت الغربان فلم تأت ماذا نصنع بك؟ قال: أبعدها الله إذاً!![2]).

وهذه الشخصية غريبة الأطوار لا تزال تطل برأسها، وتظهر بوصفها، في هؤلاء الذين لا تعرفهم سوح النزال إلا إذا خَلَت من فرسانها وأبطالها، وأُثقِلت الليوث بقيودها وأغلالها، فترى عينك حينئذ ما لم تكن ترى، وتسمع أذنك ما لم تكن تسمع، وقد صدق من قال حينها:

تنسَّـــــرت البغـــــاث بـــــأرض نســـــر ... ودَلَّ الـــــذئب فـــــي أرض الهزبـــــرِ
وشـــــمَّر عـــــن مـــــداهُ كـــــلُّ غِـــــرٍّ ... وطـــــاول صـــــاحب الماضـــــي الأغَـــــرِّ

وإني لمدرك أن ظاهرة أبي حية تحتاج إلى ممارسات أهل الطب أكثر من حاجتها إلى الرد العلمي، فصاحب البِزَّةِ البيضاء، أولى بمباشرتها من صاحب العمامة والرداء! والمِسْبار والمِبضع والمقياس، أجدى في التعامل مع المصاب بها من الدواة والقلم والقرطاس!!

ثم إني لا يكاد ينقضي عجبي، ولا يهدأ غضبي من جرأة ذلك المتطاول على الشيخ الأسير، وهو في نفس الوقت مُكرَمٌ في دارٍ يُغضِبُ صاحبها صنيعه، بل صاحب تلك الدار قد سماها باسم الشيخ الأسير، فهل غاب عن نظره وهو (المدقق!) و(المحقق!) أن تلك الدار التي يتجوّه بالانتساب إليها أحد سُبلها المؤدية إليها:

http://www.abu-qatada.com

وكل ناظر في ما سطره صاحب تلك الدار الرحيبة فك الله أسره، يعلم منزلة الشيخ أبي قتادة منه، فقد أثنى عليه، ونقل من كلامه، وذب عنه، في مواضع من كتبه ورسائله، ومن ذلك دفعه عنه في كتابه القيم: (تبصير العقلاء بتلبيسات أهل التجهم والإرجاء)،

فمما قاله تحت عنوان "طعن الحلبي في أهل الإسلام وتركه بل ودفعه عن أهل الأوثان":

---

١ الإصابة (٨٦/٧).

٢ السابق.

(وتأكيدا لمنهج الحلبي هذا في متابعته لأهل البدع في الطعن في أهل السنة وغمزهم ولمزهم وتسميتهم بالخوارج؛ إليك أمثلة من غمز الحلبي في طائفة منهم ممّن يكتبون في التوحيد والبراءة من الطواغيت على وجه الخصوص.

قال في صفحة ٣٢: (أمّا ما يتهافت عليه سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان» وقال تعليقاً على هذا في الهامش: «هذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم للخوارج..)!!

ثم قال في الصفحة نفسها: (أمّا المنحرفون المخالفون فهم صنوف:

–وذكر بعض كلامه وعلق عليه، ثم نقل عن الحلبي قوله:– وثالث أثافيهم: ذاك المتعالم الذي بال الشيطان في أُذنيه ملبسا عليه مصوّراً له أنَّه (قَتادة) في عيون المخالفين له، وشجىً في حلوقهم!!) انتهى.

قال الشيخ أبو محمد معلقاً: (ويقصد بهذا أخانا الفاضل الشيخ أبا قتادة الفلسطيني حفظه الله تعالى.

فتأمّل كلامه العلمي الرصين!! هذا، ومجازفاته التي تدّل على حداثة سنّه!! وسفاهة عقله!! وقلّة خبرته وعدم تقديره لحقيقة ما يُلقيه من كلمات.

فمن ذا الذي أخبره أنَّ: الشيطان قد بالَ في أُذني الشيخ.

أليس هذا من رجم الكهّان والعرّافين..؟

اللهم إلاّ أنْ يكون إبليس من مشايخه، وقد حدّثه به أو أوحاه إليه.. (على أنَّ الشيخ غير ثقة فيما يُحدّث به).

وعلى كل حال فالرد بمجرد الشتم والتهويل ليس بعلم؛ ولا يعجز عنه أحد، وطالب الحق لو أنه يناظر الكفار والمشركين واليهود والنصارى لكان عليه أن يذكر الأدلة والبراهين التي تبين الحق الذي معه وتكشف الباطل الذي معهم، ولا يغني عنه ولا ينفعه بحال أن يحيد إلى السب أو الشتم أو التهويل.. –إلى أن قال–: أمّا هذا الحلبي، فالعجيب في أمره أنَّه لا يتناول بلسانه الطويل، وقدحه الهزيل، إلاّ أنصار الدين وجند التوحيد؛ الذين نذروا حياتهم ـ كما نحسبهم ولا نُزكّي على الله أحدا ـ لجهاد الطواغيت وكشف كفرهم، وتعرية قوانينهم، وتحذير النّاس من شركيّاتهم.

ولذلك فجميع الذين تصدى للطعن فيهم هاهنا؛ من أعداء الطواغيت الذين يجادل عنهم هو ومن على طريقته من أهل التجهم والإرجاء.. تتبع أخبارهم تجهدهم ما بين مسجون أو ملاحق أو مطرود أو مبتلى أو مبعد عن الديار؛ بسبب دعوتهم للتوحيد وعداوتهم للطواغيت وبراءتهم من الشرك والتنديد!!

فلماذا يا ترى يعادي هو ومن على شاكلته هؤلاء!!!

أقلّـــوا علـــيهم لا أبـــا لأبيكمـــو مـن اللـوم أو سـدّوا المكـان الـذي سـدّوا

ولو تأمّل طالب الحق غمزه ولمزه في الموحدين في كتبه وصفحات هوامشه التي سوّدها.. لوجدها على هذه الطريقة العوجاء العرجاء ممتلئة بسجعِ الكهّان، وتلوين الكلام، خالية تماماً من الردّ العلمي على كتاباتهم وحُججهم..) انتهى.

فهذا صاحب تلك الدار كما ترى يدافع ويدفع عن الشيخ أبي قتادة، فهل من شيم ذوي المروءات أن يؤذى الرجل من نزيلٍ مُكرمٍ في بيته؟! أم أن للمروءة معايير أُخَر لا يفهمها إلا (العلامة المحقق)؟!!

وإذا كان الشارع الحكيم صلى الله عليه وسلم قد شدد وأكد على حق الجار، حتى قال كما في الصحيحين وغيرهما: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره)، وفي البخاري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن) قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)، وفي مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه)، فإذا كانت هذه منزلة الجار، في كلام سيد الأبرار، فكيف بمنزلة وحقِّ المتفضلِ الكريمِ صاحبِ الدار؟!

ثم إن من علامات صدق المحبة للحبيب محبة ما يحب، وكراهة ما يكره، أو على الأقل عدم إظهار الكراهة لمن أحب، وعدم إظهار المحبة لمن كره، ومحبة عدو الحبيب أو كراهة حبيبه، دلالة كذب دعوى المحبة للحبيب، وآية كونها زيفاً لا يحمل عليها إلا شهوة جامحة، أو مصلحة مُرتجاة.

قال ابن القيم عليه رحمة الله في تعداده لعلامات المحبة: (ومنها سروره بما يُسر به محبوبه كائناً ما كان، وإن كرهته نفسه، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه يكرهه طبعاً ويحبه لما فيه من الشفاء، وهكذا المحب مع محبوبه يسره ما يرضى به محبوبه وإن كان كريهاً لنفسه، وأما من كان واقفاً مع ما تشتهيه نفسه من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبة معلولة، حتى يُسر بما ساءه وسره من مراضي محبوبه[٣]).

قلت: وهذا الطاعن في الشيخ أبي قتادة، يزعم محبته للشيخ أبي محمد المقدسي فك الله أسرهما، ولا أدري كيف تروج دعوى محبة الثاني مع بغض خِلّه وحِبّه الأول؟! بل ذمِّهِ وعيبهِ والافتراءِ عليه!! فهل صحّت واستقامت عند عاقل دعواه؟! أم لاح أنها المصالح المرتجاة!! ومحبة الشُهرة والذِكر والجاه!!

هل غاب عن علم (العلامة!) الغزير!! وفهمه الملبّد الوفير!! قول النبي عليه الصلاة والسلام كما في صحيح مسلم وغيره: (لا يَؤُمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تَكْرِمَتِه إلا بإذنه).

قال ابن بطال رحمه الله: (صاحب المنزل فى منزلهِ كالأمير لا ينبغى لأحد التقدم عليه فى أمر[٤]).

وقال ابن رجب رحمه الله: (ونقل حرب عن أحمد، قال: إذا كان الرجل في قريته وداره فهو في سلطانه، لا ينبغي لأحد أن يتقدمه إلا بإذنه.

٣ روضة المحبين (ص٢٧٨).

٤ شرح صحيح البخاري له (٩/٣١٥).

وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ولا يؤمن الرجل في أهله ولا في سلطانه).

وعلى هذه الرواية، فالمراد بأهله: بيته، وبسلطانه: ما يتصرف فيه بأمره ونهيه كأمير البلد[٥].

فانظر كيف قدم الشارع صاحب السلطان في سلطانه، وصاحب الدار في داره، في الإمامة على غيره ولو كان ذلك الغير أقرأ منه وأفقه وأورع! ونهى عن الجلوس على فِراش صاحب الدار ووطائه إلا بإذنه! فبربك قل لي أي جناية جناها من دخل دار مُضيّفه ومُكْرِمه، فآذاه وأفسد في الدار، ولم يرع لصاحبها ولا لأحبابه وأصحابه حرمة ولا ذمة؟!!

فلا والله ما كان ذلك بُخُلقِ بني الإنسان، فضلاً عن أهل الإسلام! وإنما تلك الفعلة الردية، نزعةُ لؤمٍ فأرية!!

والفأر من شأنه دخول الديار عند سكون الحركات، وغياب الأصوات! ليسلم من هشم العصا، أو رجم الحجار والحصا! فيفترش الدارَ سُفْرَة، يأكل من طعام أهلها حتى يبشم، ثم يكون شُكرُه وحمدُه عيثُ الفساد! حتى إنه ليكون سبباً في إضرام النار على أهل البيت!! ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري: (خمروا الآنية، وأوكوا الأسقية، وأجيفوا الأبواب، واكفتوا صبيانكم عند العشاء، فإن للجن انتشاراً وخطفة، وأطفئوا المصابيح عند الرقاد، فإن الفويسقة ربما اجترت الفتيلة فأحرقت أهل البيت)، وفي رواية عند مسلم: (فإن الفويسقة تُضرم على أهل البيت بيتهم).

وهكذا يفعل من أصابته تلك النزعة إذا دخل الديار، لا تراه يلبث قليلاً حتى يضرم بين أهلها نار الأذى والفرقة والشِقاق!!

ولا غرو بعد هذا أن كانت تلك الفأرة الفويسقة من الخمس الفواسق اللاتي يقتلن في الحِلِّ والحَرَم!

فمن أفسد في دار مُكرِمِهِ المحسنِ إليه، وهو في نفس الوقت يأكل منها وبها، ويستشرف بالانتساب إليها خاصة حين كساد البضاعة وفسادها، فذلكم شَبَهُهُ فاعرفوه!!

ولم يتوقف التعري عن مروءات الكرام عند هذا الحد، بل أوصلته تلك النَزْعة إلى إيذاء صاحب الدار نفسه، فغدا يصف بعض أقواله المشتهرةِ عنه بالأوصاف البذيَّة، ويصف القائل بها بأنه مصطبح ومتغدٍ ومتعشٍ في سُفْرة –وليس صفرة– الأزارقة والصُفرية!!

فهل رأيتَ أيها الناظر معضلة أخلاقيه كهذه؟!!

ألا رحم الله كراماً أحسنوا به الظن، وعظم أجرهم وجبرَ مصابهم، وإنه ليذكرني هذا الحال بقصة الحارث بن حسان[٦] رضي الله تعالى عنه لما أراد القدوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجد عجوزاً في طريقه منقطعٌ بها، فاحتملها معه وما شَعَر أنها ستكون له خصماً!

---

٥ فتح الباري لابن رجب (١٣٦/٦).

٦ ويقال له: الحارث بن يزيد أيضاً.

فقد روى الإمام أحمد[٧] في مسنده بإسناده عن الحارث بن يزيد البكري رضي الله عنه قال: (خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالرَبَذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وإذا راية سوداء تخْفِق، وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً، قال: فجلست، قال: فدخل منزله – أو قال: رحله – فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت، فسلمت فقال: ((هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟)).

قال: فقلت: نعم، قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت.

فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحَمِيَت العجوز واستوفزت!!

قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مُضَرَك؟

قال: قلت: إنما مثلي، ما قال الأول: مِعْزاة حملت حتفها! حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً!! أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال: ((هيه، وما وافد عاد؟)) وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج جبالَ تهامة، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت مُسْقيه، فمرّت به سحابات سود، فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمدداً ولا تبق من عاد أحداً!!

قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح، إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا، قال أبو وائل: وصدق قال: فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد)ا.هـ

قال أبو الحسن: ولا عتَبَ على الكريم إن ظن باللئيم ظناً حسناً لبعض ما يتصف به من حميد خصال، أو بسبب ما تبدا له به من حال، فلا أعظم من خبث المنافقين، ومع هذا قد يُعجب بأجسادهم وألسنتهم المؤمنون، كما قال ربنا جل في علاه: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)} [المنافقون]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(فهذا تحذير من الله تعالى من النظر إليهم واستماع قولهم، فلا ينظر إليهم ولا يسمع قولهم، فإن الله سبحانه قد أخبر أن رؤياهم تعجب الناظرين إليهم، وأن قولهم يعجب السامعين[٨]).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

---

٧ المسند (٣٠٦/٢٥) ط- الرسالة، وقد روي من غير طريق، وقال محققوه: إسناده حسن.

٨ مجموع الفتاوى (٣٩٨/١٥).

(كانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن[٩]).

وقال الطاهر ابن عاشور رحمه الله:

(وأتْبَعَ انتفاءَ فقهِ عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم، فإنها أجسام خالية عن كمال الأنفس، كقول حسان ولعله أخذه من هذه الآية:

لا بـأس بـالقوم مـن طـول ومـن غِلَـظٍ جسـم البغـال وأحـلام العصـافيرِ

-إلى أن قال-: والمراد بالسماع في قوله: {تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} الإصغاء إليهم لحسن إبانتهم وفصاحة كلامهم، مع تغريرهم بحلاوة معانيهم تمويه حالهم على المسلمين[١٠]).

فهؤلاء المنافقون أخبث الناس وشر البرية، وإنما يغر أهل الإيمان منهم فصاحة ألسنتهم وحلاوة منطقهم وجمال صورهم، فتَسْدُلُ تلك المظاهر على أبصار المؤمنين حُجُباً تستر به الحقائق والقبائح، وزينة الباطل الغارّة لها مظاهر وأشكال، فقد تكون فصاحة لسان وحسن بيان، أو جمالاً، أو زهداً وتقشفاً، أو دمعةً سيَّالة، أو غير ذلك.

وإذا كان المنافقون مع خبث دواخلهم بالحال الذي علمت من المؤمنين، فلا ريب أن من فوقهم من المسلمين مهما بلغوا من فساد الذوات إذا اتصفوا ببعض الخصال الحسنة الظاهرة، فهم أحرى وأجدى أن يخفى أمرهم، وينطلي زيفهم على الألباء الأذكياء.

ودونك الإمامان الجليلان مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي رحمهما الله، فقد روى الأول عن عبدالكريم بن أبي المخارق، وروى الثاني عن إبراهيم بن أبي يحيى، وهذان الرجلان من الضعف عند أهل العلم بمكان لا يخفى! وإنما رويا عنهما لبعض ما أعجبهما من صفاتهما، كما ذكره الحافظ ابن عبدالبر عليه رحمة الله، فقال:

(وعبد الكريم هذا ضعيف لا يختلف أهل العلم بالحديث في ضعفه، إلا أن منهم من يقبله في غير الأحكام خاصة، ولا يُحتج به على حال، ومن أجلِّ من جرحه واطَّرحه أبو العالية، وأيوب السختياني تكلم فيه مع ورعه، ثم شعبة، والقطان، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين -إلى أن قال- وكان مؤدب كتاب، وكان حسن السمت، غرَّ مالكاً منه سمته، ولم يكن من أهل بلدهِ فيعرفه، كما غرَّ الشافعي من إبراهيم بن أبي يحيى حِذْقُه ونباهته، فروى عنه وهو أيضا مجتمع على تجريحه وضعفه[١١]).

قلت: ومع كل هذا فما أسرع أن تتبدى مع مُضي الوقت الحقائق، وتنكشف الحال في المضايق، فيظهر الخالص من

٩ تفسير ابن كثير (١٢٦/٨).

١٠ التحرير والتنوير (٢٣٨/٢٨-٢٣٩).

١١ التمهيد (٦٥/٢٠).

البهرج، ويستبين لكل ذي عينين السالم من الأعرج! وحينها لا يلدغ المؤمن جحر مرتين!!

وقبل الشروع في المقصود من هذا الرقم، أرى لزاماً عليّ أن أعرِّف القارئ الكريم ببعض صفات أبي حية العصريِّ وأخلاقه المشهورة، وأقف به على بعض أقواله المسطورة، ليُعلم في أي مدرسة درس، وأي بذر في قلبه انغرس!!

ثم سأعرج على بعض جهالاته في (التبصير) للتمثيل والتدليل بها علميته الواسعة وتحقيقه وتدقيقه!! وبعدها أوان الحديث عن فتوى خطباء العبيدية، وكشف ما في كلامه على الشيخ الأسير من كذب وبلية!!

فصل: في ذكر طائفة من صفات صاحب التبصبر وأخلاقه!

الصفة الأولى:

التعالي، والغرور، والعُجب بالنفس وإكثار ذكرها ومدحها والثناء عليها، مع ما يصاحب هذا من ازدراء للغير، وتشبع بما لم يعطه، وتفاخر بما لا يبلغه وبالخارجات عنه!

ويصدق في وصف الحال قول القائل:

أتيـــه علـــى جـــنّ الـــبلاد وإنســـها	ولـو لـم أجـد خلقـاً لتهـت علـى نفسـي
أتيـــه فـــلا أدري مـــن التّيـــه مـــن أنـــا	ســوى مــا يقــول النــاس فــيّ وفــي جنســي
فـــإن زعمـــوا أنّـــي مـــن الإنـــس مـــثلهم	فمـــا لـــي عيـــبٌ غيـــر أنّـــي مـــن الإنـــسِ

وهذه أمثلة من كتابه (التبصير)، ليس غير:

١- يقول عبدالإله الجزائري: (كما أسأله تعالى أَن يُوفقني للإجابة، وأَن يجنّبني من الكلام ما هو إعابة، وأَن أجلي الحقائق، وأخرج الدَّقائق؛ ممَّا حباني اللَّه به من علمٍ، المُلبَّد بقريح الفهم، خاصة في هذا العلم الجليل، والذي لا يصحّ إلَّا معه سير السَّبيل).

٢- ويقول: (وعلامة المجاهد . بعلمه . الصَّادق، أَن يكون . بما أتاه اللَّه . من نظرٍ فائق؛ في خدمة التَّجلية، والبعد عن التَّعمية؛ في هذا العلم الجليل والأصل الطَّويل، والحبل الممدود، والعهد المعهود. فمَن قرأ لي فيما حرَّرته في هذا العلم الجليل، يرىٰ الدَّليل؛ فيه قائمَ، والتَّحرير سالمَ؛ من كلّ جناية، تدعو لعماية، فما أحرّره، وأجليه وأُسطّره . منَّة من الوهاب نشكره ولا نكفره عليها . ، يقوم علىٰ أربع ويدعو للمذهب الصَّاحبيِّ السَّلفيِّ الأتبع:

أوَّلاً: التَّقعيد، والتَّجديد؛ للأصول الاستدلالية التَّوقيفية العقدية ومسائل الدّين، بنظرٍ ثاقب، ومدلولٍ صائب).

٣- ويقول: (وكما أجليت لنا السُّؤال، لابدَّ من تحليته بالعذَب الزُّلال، ومنه معرفة الأقسام، ليصلح تنزيل الأحكام، والدَّل علىٰ الدَّليل بالمدلول، ومعرفة المَنَاط وحصر السَّببية في المعلول وهذا باب الفقه الأعظم، والمسلك الأسلم، وكيفية التَّوقيع عن الرَّب بالتَّجنب للأقوال النَّصب، وهذا فضل اللَّه الكبير، يمنُّه علىٰ المحقّق المدقّق الحبير، وأسمىٰ معاني النّعمة، وأعلىٰ مراتب الهمَّة، يؤتيه مَن يشاء من عباده نسأله تعالى أَن يمنَّه علينا...).

٤- ويقول: (فهذا التَّقسيم، لم أُسبق إليه من طرف المُحقّقين أصحاب ملكة التَّفهيم).

٥- ويقول: (وإنما بما تراه الشَّريعة سبًّا، وتيقَّن قائله أنه سبٌّ، وإلَّا نرىٰ . كمحقّقين . بعض الأقوال تصدر سبًّا من قائليها).

٦- ويقول: (ونزلت بسؤالك سهلاً؛ لنُرشد إلىٰ الدُّر، وننزع عنك تأفف الصَّدر، وأُثلج، وبين الحقّ والباطل أُفْلج وأُرشد

للأصل العظيم، بالكلام السَّليم، وهذا لابدَّ له من وفرة علم وذكاء فهم).

قال أبو الحسن غفر الله له: فتأمل تلك الألقاب والأوصاف التي لا يستحيي هذا التائه من إطلاقها على نفسه، تحقيق، وتدقيق، وتحبير، وتقعيد، وتجديد، ونظر ثاقب، ومدلول صائب، وتحرير سالم من كل جناية، وعلم ملبد بقريح الفهم، ووفرة علم، وذكاء فهم!!

فهل فَلَتَ من شِبَاكِ إبليس من نَعَتَ نفسه بتلك النعوت؟! وهل سَلِم من نَفخِه الممقوت؟! هذا لو كان لتلك الأوصاف مستحِقاً، فكيف وكتاباته شاهدة بما بينه وبينها من قطيعة وصَرْم! صارخةٌ أن ليس يملك من حقائقها إلا الدعوى والرقم!!

والحال كما قال ابن القيم عليه رحمة الله: (لو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلُّف! وهذه الحماقات والرعونات نتائج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه غافل عن جرمه..[١٢]).

وإنك إذا نظرت إلى أهل العلم حقاً، الذين بلغوا تلك المراتب صدقاً، وجدتهم من أبعد الناس عن تلك المهلكات، وأشدهم لأنفسهم احتقاراً، فالعالم المدقق المحقق هو كما وصفه الآجري رحمه الله:

(يذكر الله مع الذاكرين، ويعتبر بلسان الغافلين، عالم بداء نفسه، ومتهم لها في كل حال، اتسع في العلوم، فتراكمت على قلبه الفهوم، فاستحى من الحي القيوم[١٣]).

وروى الآجري رحمه الله بإسناده عن الحسن قال: (إن كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يُرى ذلك في تخشُّعه وبصره ولسانه ويده وزهده...[١٤]).

ورحم الله أيوب السختياني إذ يقول: (ينبغي للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعاً لله عز وجل[١٥]).

وحقائق العلم ودقائقه لا ينالها حق العلم إلا المتواضعون المتخشعون، المخبتون المتذللون، والمغرور وإن هملجت بغاله، وعلا صوته وكَثُرَ قاله، فهو عند أولي الألباب والحِجا، ما راح ولا جا!!

حكى الماوردي رحمه الله عن الشعبي رحمه الله أنه قال: (العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله! ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله! وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً[١٦]).

---

١٢ جلاء الأفهام (ص٢٤٠).

١٣ أخلاق العلماء (ص٦٧).

١٤ أخلاق العلماء (ص٧٠).

١٥ السابق، وجامع بيان العلم وفضله (٥٦٦/١).

١٦ أدب الدنيا والدين (ص٧٣).

وما أحسن قول من قال: (المتواضع من طلاب العلم أكثر علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً[١٧]).

وسِرُّ هذا القول جلاّه الإمام ابن القيم رحمه الله فقال: (والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم يُنزل عليها الماء فتهتز وتربو، وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق، وأما النار فطبعها العلو والإفساد، ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله، وكذلك المخلوق منها، فهي دائماً بين العلو إذا هاجت واضطربت، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت، والأخلاق المذمومة تابعة للنار، والخلوق منها، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض، والمخلوق منها، فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل[١٨]).

وقال الإمام الماوردي رحمه الله: (وقلما تجد بالعلم معجباً وبما أدرك مفتخراً إلا من كان فيه مقلاً ومقصراً، لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره، فأما من كان فيه متوجهاً ومنه مستكثراً فهو يعلم مِن بُعْدِ غايتِهِ، والعجزِ عن إدراك نهايتِهِ، ما يصده عن العُجْبِ به[١٩]).

وحكى رحمه الله في هذا الشأن قصة ذات عظة حصلت له، يحسُن إيرادها للاعتبار، قال: (ومما أنذرك به من حالي أنني صنفت في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان، فسألاني عن بيع عَقَدَاه في البادية على شروط؟ تضمنت أربع مسائل! لم أعرف لواحدة منهن جواباً!! فأطرقت مفكراً، وبحالي وحالهما معتبراً، فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟! فقلت: لا، فقالا: واهاً لك! وانصرفا، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه، فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما! وانصرفا عنه راضيين بجوابه! حامدين لعلمه! فبقيت مرتبكاً، وبحالهما وحالي معتبراً، وإني لعلى ما كنت عليه من المسائل إلى وقتي، فكان ذلك زاجرُ نصيحة، ونذيرُ عظة، تَذَلَّلَ بها قِياد النفس، وانخفضَ لها جناح العُجْب، توفيقاً مُنِحْتُهُ ورشداً أوتيته[٢٠]).

قلت: ثم ما عسى المرء لو حاز العلوم كلها أن ينفعه علمه إذا أدّاه للتكبر والاغترار، فنكَّبه سبيل الأبرار، وقرَّبهُ من مَحِلّة البوار؟!

ذلكم إبليس المدحور المذؤوم، من أعلم خلق الله، ما أغنت عنه تلك العلوم؟! فغروره وكبره وعُجبهُ بنفسه أرداه وأشقاه! ومنعه سجدة الفلاح والنجاة! فتلك جهنم سرمداً أبداً مستقره ومأواه!!

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في كلامه على فوائد قصة آدم عليه السلام مع إبليس اللعين: (ومنها عدم

---

١٧ جامع بيان العلم وفضله (٥٦٣/١).

١٨ الفوائد (ص١٤٤).

١٩ أدب الدنيا والدين (ص٧٣).

٢٠ أدب الدنيا والدين (ص٧٣).

الاغترار بالعلم، فإن اللعين كان من أعلم الخلق فكان من أمره ما كان!![٢١]).

وقال عند قول الله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا}: (فيه مسائل:

-إلى أن قال- السابعة: عدم الاغترار بغزارة العلم، الثامنة: عدم الاغترار بصلاح العمل[٢٢]).

وتأمل في حال أتباع إبليس من الأمم المكذبة برسل الله، كيف اغتروا بما عندهم من علم، فكذبوا رسل الله واستهزءوا بهم، فحقَّ عليهم العذاب، قال الله تبارك وتعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)}[غافر].

قال سيد قطب عليه رحمة الله:

({فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} والعلم بغير إيمان فتنة، فتنة تُعمي وتُطغي، ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحي بالغرور، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة، ويملك مقدرات عظيمة، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها، وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها، وهي موجودة في هذا الكون ولا سلطان له عليها، بل لا إحاطة له بها، بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة، وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته! ويستخفه علمه وينسى جهله! ولو قاس ما يعلم إلى ما يجهل، وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز، حتى عن إدراك سِرِّه لطامن من كبريائه، وخفف من فرحه الذي يستخفه![٢٣]).

وهذا صاحب الجنتين اللتين رزقه الله فيهما صنوفاً من النعم والخيرات، فتاه واغتر فحُرِمهما، قال الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)..} الآيات.. [الكهف].

قال ابن عاشور رحمه الله: (ضرب مثلاً للفريقين للمشركين وللمؤمنين، بمثل رجلين كان حال أحدهما مُعْجباً مُؤْنِقاً، وحال الآخر بخلاف ذلك، فكانت عاقبة صاحب الحال المونقة تباباً وخسارة، وكانت عاقبة الآخر نجاحاً، ليُظهرَ للفريقين ما يجُرُّه الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب، فيكون مُعَرَّضاً للصلاح والنجاح[٢٤]).

---

٢١ تفسير آيات من القرآن الكريم، للشيخ محمد بن عبدالوهاب (ص٨٦) ط١-مطابع الرياض.

٢٢ تفسير آيات من القرآن الكريم (ص١١١).

٢٣ في ظلال القرآن (٥/٣١٠١).

٢٤ التحرير والتنوير (١٥/٣١٥).

بل دونك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرُّ هذه الأمة قلوباً، وأكرمها منزلة، لما أُعجِبوا بكثرتهم يوم حنين كان ذلك سبباً في هزيمتهم أول الأمر، قال ربنا سبحانه: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)} [التوبة].

قال الحافظ ابن حجر: (روى يونس بن بكير في زيادات المغازي، عن الربيع بن أنس، قال: قال رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فكانت الهزيمة[٢٥]).

قال الطرطوشي رحمه الله: (القدماء قالوا: الكثرة للرعب والقلة للنصر! وقد قال الله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}، فالكثرة أبداً يصحبها الإعجاب، ومع الإعجاب الهلاك![٢٦]).

فانظر إلى هذه الآفة التي لا تكاد تدخل في شيءٍ إلا وتفسده، فهي إذا خالطت المال مَحَقَته! وإذا خالطت العدد والعدة جرَّت على أهلها الهزيمة! ولو كانوا من أهل الإيمان والبأس والشكيمة!! وإذا خالطت العمل الصالح طردت نفعه وثوابَه! وإذا خالطت العلم قطعت عن صاحبه التوفيق وأوصدت بابَه! ووكَلَهُ الله إلى نفسه فَضَلَّ واستحقّ عقابَه!!

وانظر بعد هذا إلى الصفة التي تضاد هذه الآفة كيف حوت الخير، ونال أصحابها من التوفيق والعلم والأجر والنصر الحظَّ الوفير!

قال ابن القيم رحمه الله: (إن خُلْعَةَ النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}، وقال: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره[٢٧]).

ولهذا كان من أهم ما يوصى به المجاهدون إذا لقوا عدوهم أن لا يغتروا بما معهم من عدد وعُدّة، ولا قوة وشِدَّة، وكلما فتح الله عليهم فتحا، ومَنَحَهُم مَنْحا، وأوقع في عدوهم بأساً وقرحا، فهم إلى تلك الوصاة أحوج!

كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه كتاباً لخالد بن الوليد رضي الله عنه وهو في العراق، وقد كسر الله على يديه الأعداء الشداد، وفتح به للمسلمين عدداً من البلاد، ومما قال في كتابه لخالد: (ليهنك أبا سليمان النية والحَظْوَة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عُجْبٌ فتخسر وتُخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل، فإن الله له المنّ، وهو ولي الجزاء[٢٨]).

---

٢٥ فتح الباري (٨/٢٧).

٢٦ سراج الملوك (ص١٧٩).

٢٧ زاد المعاد (٣/١٩٨).

٢٨ البداية والنهاية (٩/٥٣٥-٥٣٦).

وقد أخرج البزار[٢٩] بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكثر منه، العُجْب!}، قال المنذري: إسناده جيد[٣٠].

قال المناوي رحمه الله: (لأن العاصي يعترف بنقصه فترجى له التوبة، والمعجب مغرور بعمله فتوبته بعيدة {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} –إلى أن قال– والعجب يصرف وجه العبد عن الله، والذنب يصرفه إليه، والعجب يُقبل به على نفسه، والذنب يُقبل به على ربه، لأن العجب يُنتِج الاستكبار، والذنب يُنتِج الاضطرار، ويؤدي إلى الافتقار، وخير أوصاف العبد افتقاره واضطراره إلى ربه[٣١]).

قال ابن مفلح رحمه الله: (وقال جعفر بن محمد: علم الله أن الذنب خير للمؤمن من العُجْب، ولولا ذلك لما ابتلي مؤمن بذنب[٣٢]).

وقال الماوردي رحمه الله: (قال مورق العجلي: خير من العجب بالطاعة أن لا يأتي بطاعة[٣٣]).

وأوضح ابن القيم رحمه الله هذا المعنى بكلام جليل عظيم النفع، وفيه وصفٌ للحال التي ابتلينا بها، كأنما الإمام بيننا، يقول رحمه الله: (الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى ذكر ذنبه، فيحدث له انكساراً وتوبةً واستغفاراً وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومِنَّة، فتكون سبب هلاكه! فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً باكياً نادماً، مستقيلاً ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولةً وكِبْراً وازدراءً بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، الصائلِ بها، المانِّ بها وبحاله على الله عز وجل وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويخضعوا له! ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً، ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه، متطلباً لعيبه في قالب حمية لله وغضبٍ له! وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا فتح له باب المعاذير والرجاء!! وأغمض عنه عينه وسمعه!! وكف لسانه وقلبه!! وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تُكَفّر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه!![٣٤]).

---

٢٩ مسند البزار (٣٢٦/١٣).

٣٠ الترغيب والترهيب (٣٥٨/٣).

٣١ فيض القدير (٣٣١/٥).

٣٢ الآداب الشرعية (٢٠٩/٢).

٣٣ أدب الدنيا والدين (ص٩٩).

٣٤ مدارج السالكين (٣٠٧/١-٣٠٨).

قلت: رحمك الله لقد وصفتَ فشفيت، وبينتَ الداء فأجليت، وما أنقصتَ ولا أربيت!!

وفي الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل يمشي في حلة، تُعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة).

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: (إعجاب الرجل بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان مِنَّة الله تعالى، فإن رفعها على الغير واحتقره فهو الكبر المذموم[٣٥]).

وقال أيضاً: (يفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة[٣٦]).

وأخرج البزار[٣٧] واللفظ له والبيهقي[٣٨] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: {ثلاث كفارات، وثلاث درجات، وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات...-إلى أن قال- وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه}، وقد رواه البزار من غير طريق.

وزاد في رواية عند البيهقي[٣٩] من حديث أبي هريرة: (.. وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدهن).

قال المنذري رحمه الله: (رواه البزار واللفظ له والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى[٤٠]). وكذلك قال الألباني رحمه الله.

قال ملا علي القاري رحمه الله: ((وإعجاب المرء بنفسه) أي: باستحسان أعمالها وأحوالها، أو مالها وجمالها، وسائر ما يتوهم أنه من كمالها. (وهي) أي: الخصلة الأخيرة. (أشدهن) أي: أعظمهن وزراً وأكثرهن ضرراً، لأنه يتصور أن يتوب من متابعة الهوى، ومن رذيلة البخل، والمعجب مغرور ومزين، فهو محبوب لا يرجى زواله كالمبتدع، فإنه قل أن يتوب من بدعته[٤١]).

قلت: ومن خطورة العُجب أنه من أسباب الكِبر، بل هو سببه الأكبر، ولا يكاد يسلم من الكِبر مُعجب! والكِبْر معلوم وعيدُ آتِيْه، مشهورٌ عقابُ الواقع فيه!

---

٣٥ انظر طرح التثريب (١٦٨/٨).

٣٦ انظر طرح التثريب (١٦٩/٨).

٣٧ مسند البزار (١١٤/١٣).

٣٨ شعب الإيمان (٢٠٣/٢).

٣٩ شعب الإيمان (٣٩٦/٩).

٤٠ الترغيب والترهيب (١٧٤/١).

٤١ مرقاة المفاتيح (٣١٩٩/٨).

قال ابن الجوزي رحمه الله: (اعلم أن من أسباب الكبر العُجْب، فإن من أعجب بشيء تكبر به[٤٢]).

وقال العز بن عبدالسلام رحمه الله في اختصاره لكتاب الرعاية للمحاسبي رحمه الله: (الكِبْر أن يتعظّم على غيره أَنَفَةً منه واحتقاراً له، وله أسبابٌ من جملتها العُجْب، وهو أكبرها! وكذلك يطلق الكبر على العجب، لأنه سبب عنه[٤٣]).

وذهب ابن حجر الهيتمي رحمه الله إلى أن السبب الباطني للكبر هو العُجب فقط! فقال: (ومما يهيج الكبر ويسعر ناره العُجب والحقد والحسد والرياء، إذ التكبر خُلق باطني لأنه استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وموجبه الحقيقي هو العُجْب –إلى أن قال– وأما غير العُجْب مما ذكرنا فإنما هو سبب للتكبر الظاهر، لأن باعثهُ على التكبر عليه هو الحقد والحسد، وعلى غيره هو الرياء[٤٤]).

ومن عظيم خطر العُجب أنه يفسد الأعمال ويحبطها! وقد تقدمت الإشارة إلى شيءٍ من هذا، قال ابن حزم رحمه الله: (وإن العُجْب من أعظم الذنوب وأمحقها للأعمال، فتحفظوا حفظنا الله وإياكم من العجب والرياء[٤٥]).

قال ابن القيم رحمه الله: (لا شيء أفسد للأعمال من العُجْب ورؤية النفس[٤٦]).

وأخطر من كل هذا أنه بريدُ الشرك! وقد عدَّه شيخ الإسلام ابن تيمية نوعاً من أنواع الشرك –أي الأصغر–، فقال: (وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به، فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم، وعلى طاعتهم، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة، وبالإعجاب أخرى، فإن لم يحصل مراده من الخير كان لضَعْفِه، وربما حصل له جزع، فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب، وقد يُعجب بحاله فيظن حصول مراده فيُخذل، قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين} إلى قوله: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعُجْب من باب الإشراك بالنفس! وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، والمعجب لا يحقق قوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فمن حقق قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} خرج عن الإعجاب[٤٧]).

فلهذا وغيره اشتد تحذير السلف من العُجْب، وكثُر كلامهم فيه..

روى الإمام ابن عبدالبر بإسناده عن يزيد بن قوذر، عن كعب، أنه قال لرجل رآه يتبع الأحاديث: (اتق الله، وارض بالدون

---

٤٢ غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (٢/٢٢٣).

٤٣ مقاصد الرعاية لحقوق الله (ص١٤٠).

٤٤ الزواجر (١/١٢٠).

٤٥ رسائل ابن حزم (٣/١٨٠).

٤٦ الفوائد (ص١٥٢).

٤٧ مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٧).

من المجالس، ولا تؤذ أحداً، فإنه لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العُجْب ما زادك الله به إلا سفالاً ونقصاً!![٤٨]).

وهكذا ينبغي أن يُصاح في وجه كل مغرور: لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العُجْب ما زادك الله به إلا سفالاً ونقصاً.

وروى الإمام الآجري بإسناده عن مسروق رحمه الله قال: (بحسب امرئ من العلم أن يخشى الله، وبحسب امرئ من الجهل أن يُعْجب بعلمه![٤٩]).

قال ابن الجوزي رحمه الله: (علة العجب الجهل المحض!![٥٠]).

وذكر ابن عبدالبر رحمه الله أيضاً عن علي رضي الله عنه قوله:

(الإعجاب آفة الألباب)، قال ابن عبدالبر: (وقال غيره: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله!)، قال: (وقالوا: من أعجب برأيه ذل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل)، قال: (وقالوا: لا ترى المعجب إلا طالبا للرئاسة! وقال فضيل بن عياض: ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى وتتبع عيوب الناس وكره أن يذكر أحد بخير!![٥١]).

وروى الإمام أبو نعيم في الحلية بإسناده عن الحارث بن نبهان، قال: سمعت محمد بن واسع، يقول: (واصاحباه ذهب أصحابي) قلت: رحمك الله أبا عبد الله أليس قد نشأ شباب يصومون النهار ويقومون الليل ويجاهدون في سبيل الله؟! قال: (بلى ولكن.. أخ) وتفل! (أفسدهم العُجْب[٥٢]).

قلت: رحم الله ابن واسع! ما عساه يقول ويفعل لو رأى من يتمدح بما لا يبلغه! ويترفع بما لا يحسنه! نفخته أوهامه فَخَالَهَا حقائق! فظهرت منه البوائق!!

بربك لو رآه ابن واسع فأين يكون تفلُه ذلك؟!!

ومما يناسب المقام قول أبي علي ابن مسكويه: (وحكي عن بعض الفلاسفة أنه دخل على بعض أهل اليسار والثروة، وكان يحتشد في الزينة، ويفتخر بكثرة آلاته، وقد حضرت الفيلسوف بصقة! فتنخع لها، والتفت في البيت يميناً وشمالاً، ثم بصق في وجه صاحب البيت!! فلما عوتب على ذلك قال: إني نظرت إلى البيت وجميع ما فيه، فلم أجد هناك أقبح منه فبصقت عليه!!

---

٤٨ جامع بيان العلم وفضله (٥٦٧/١-٥٦٨).

٤٩ أخلاق العلماء (ص٧٠).

٥٠ انظر غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (٥٦٧/٢).

٥١ (٥٧١/١).

٥٢ حلية الأولياء (٣٥٢/٢).

-قال ابن مسكويه-: وهكذا يستحق من كان خالياً من فضائل نفسه، وافتخر بالخارجات عنه!![٥٣]).

قال الإمام ابن عبدالبر رحمه الله: (أفضَحُ ما يكون للمرء دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماء ذلك قديماً وحديثاً، وقالوا فيه نظماً ونثراً فمن ذلك، قول أبي العباس الناشيء:

من تحلّى بغير ما هو ف ... عاب ما في يديهِ ما يدعيهِ
وإذا حاول الدعاوى لما ... أضافوا إليهِ ما ليس فيهِ
ويحسب الذي ادعا ما عَد ... أنه عالمٌ بما يعتريهِ
ومحل الفتى سيظهر في ال ... وإن كان ذائباً يُخفيهِ

وأحسن من قول الناشيء قول الآخر في هذا المعنى:

من تحلى بغير ما هو ف ... فضحتهُ شواهد الامتحانِ
وجرى في العلوم جري سُكَي ... خلَّفتهُ الجياد يوم الرهانِ [٥٤]).

ولنعد بعد هذا المسير، إلى نتف من انتفاخات صاحب التبصير:

٧- يقول: (نُجيبك عن هذا الحالك، المُخرج إلىٰ بُنيَّات المسالك بقريح فهم، وغائص علم، لا يسعك إلَّا قَبوله، وتلذذ حُلوه وعُسله فإذا رأيت فيه الدَّليل، فتلَبَّد به وأكمل السَّير في السَّبيل، ولا تستوحش بقلَّة السَّالك، أو بقلَّة مَن فَهِم الأصول والمدارك، هذا إذا كنت صحيح العقد، قويَّ النَّقد، أما إن شابتك شوائب «الجهمية» أو «المرجئة»، فلا ينفع فيك أدوية مُهيَّأة؛ بقتل الدَّاء، بذاك الدَّواء، وإنما عليك نواح علىٰ نفسك، علىٰ موت حسّك ..).

٨- ويقول: (قلنا: ما تركنا ذلك ليشرد، ولا لكلمة «الديمقراطية» أَن تتفرد، بل يأتي في الآتي المزبَّر، بفقهٍ محرَّر، يقبله الفَحْلُ، ويردُّه البَغْلُ . في فهمه وتصوره لرؤية الحقائق، والمسائل الدَّقائق).

قلت: تأمل قوله: (فإذا رأيت في الدليل..إلخ)، (يقبله الفحل ويرده..)، وكيف حصر القارئ لكلامه بين حالين: فإما أن يرى فيما يكتبه الحق فيتبعه ولا يحيد عنه، وإلا فهو قد شابته شوائب الجهمية والمرجئة، ولا احتمال ثالث!!

فلا احتمالية عنده لصدور الخطأ منه، ولا احتمالية عنده لترك الناظر لكلامه لعدم ظهور الدليل لديه، أو لمعارضته عنده بما هو أقوى منه!! إذ تحريراته سالمة من كل جناية!! وكتاباته بريئة من كل عماية!! واختياراته صواب وسداد وهداية!!

فهل ثمَّ أظهرُ من قوله هذا على الخذلان والحرمانِ والإفلاسِ دليلٌ وآية؟!!

---

٥٣ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (ص٢٠٦).

٥٤ جامع بيان العلم وفضله (١/٥٧٦-٥٧٧).

هل سمع هذا المغرور برجلٍ في التاريخ اسمه الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه! الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري: (لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثُون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر) قال البخاري رحمه الله: زاد زكريا بن أبي زائدة، عن سعد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال، يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر).

وفيهما أيضاً واللفظ لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (بينا أنا نائم، إذ رأيت قدحاً أُتيت به فيه لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الرِّي يجري في أظفاري، ثم أعطيت فَضْلي عمر بن الخطاب) قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: (العلم)).

هذا الرجل المُحدَّثُ المُلهم، الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم، قد كان من شأنه أن يتنزل القرآن موافقاً لقوله في عدة نوازل، ففي الصحيحين واللفظ للبخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: (وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى}، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغَيْرَةِ عليه، فقلت لهن: (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) ، فنزلت هذه الآية).

قال الحافظ ابن حجر: (وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها، لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه، من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين، وهما في الصحيح، وصحح الترمذي من حديث بن عمر أنه قال: ((ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل القرآن فيه على نحو ما قال عمر))، وهذا دال على كثرة موافقته، وأكثر ما وقفنا منها بالتعيين على خمسة عشر، لكن ذلك بحسب المنقول[٥٥]).

وفي مسند الإمام أحمد أن عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال وهو على المنبر: (ما نُبْعِدُ أن السكينة تنطق على لسان عمر[٥٦]).

وروى الحاكم في المستدرك عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لو وضع علمُ عمر في كفة ميزان، ووضع علم الناس في كفة لرجح علم عمر[٥٧]).

ومع هذه الجلالة والمكانة التي حِظي بها الفاروق رضي الله عنه، فقد ثبت واشتهر عنه أنه قال: (كل الناس أفقه من عمر!)، لما أرشدته امرأة إلى خطئه في قوله، كما رواه أبو يعلى بإسناده عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

٥٥ فتح الباري (٥٠٥/١).

٥٦ (٢٠١/٢).

٥٧ المستدرك (٩٣/٣).

وأصحابه، وإنما الصدقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك، فلو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله عز وجل أو مكرمة لم تسبقوهم، فلا أعرفن ما زاد رجل صداق على أربع مائة درهم.

قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش.

فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم؟ قال: نعم.

قالت: أما سمعت ما أنزل الله عز وجل في القرآن؟ فقال: فأنى ذلك؟ فقال: أما سمعت الله عز وجل يقول: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠)} [النساء].

فقال: اللهم غفرانك، كل الناس أفقه من عمر.

قال: ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني قد نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهم على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب.

قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل[٥٨])ا.هـ

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (إسناده جيد قوي[٥٩])، وكذلك قال السخاوي في المقاصد، وقال الزيلعي رحمه الله: (سنده قوي[٦٠]).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (هذه القصة دليل على كمال فضل عمر ودينه وتقواه، ورجوعه إلى الحق إذا تبين له، وأنه يقبل الحق حتى من امرأة، ويتواضع له، وأنه معترف بفضل الواحد عليه، ولو في أدنى مسألة...–إلى أن قال– وقد ثبت في موضع غير هذا أن اجتهادات السلف من الصحابة والتابعين كانت أكمل من اجتهادات المتأخرين، وأن صوابهم أكمل من صواب المتأخرين، وخطأهم أخف من خطأ المتأخرين[٦١]).

فتأمل حال ذلك المُلهم، حاملِ أعلى شهادة علمية، وهي الشهادة المحمدية النبوية، إذ شهد له بالفضل والخيرية، والمناقب السَنِيَّة العلية، والزكاءِ ووفرة العلم، وانظر ما كان عليه من خُلق رفيعٍ وتواضعٍ وأدبٍ جمّ، حتى قال مقولته تلكَ وهو بقدْرِ نفسه وعلو مكانته وسعة عِلمه أعلم! واقرن حاله بذلك المغرور وأقواله وانتفاخاته تلكَ جالبةِ الغم!! نسأل الله العافية والسلامة.

وليس الفاروق رضي الله عنه ببدع من حال الصحابة رضوان الله عليهم، الذين هم أعلم الناس بشرع الله ودينه، وكذلك

---

٥٨ المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي للهيثمي (٣٣٥/٢).

٥٩ (٢٤٤/٢)، قلت: وقد ضعف الألباني رحمه الله هذا الحديث، وانْتقِد عليه تضعيفُه! والسند له ما يعضده، ودعوى النكارة غير مُسَلّمة، وقد رأيت لأحد المعاصرين بحثاً في تضعيف الحديث لا أراه ناهضاً، والله أعلم.

٦٠ تخريج أحاديث الكشاف (٢٩٧/١).

٦١ منهاج السنة النبوية (٧٦/٦ و٨٠).

بعدهم التابعون ثم تابعوهم، ثم أئمة الإسلام هداة الأنام، على مرِّ العصور، وكرِّ الدهور، أين من هؤلاء وأولئك من زعم أن تحريراته وتقريراته سالمة من كل جناية؟! أو جعل أمر الناس مع اجتهاداته دائرة بين قبولهم لها فهم مهتدون، وإن ردوها فهم ضُلال مبعدون؟! نعوذ بالله من الضلالة والغواية.

وكبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مع غوصهم في بحر العلوم، وبلوغهم منها شأواً لا يبلغه من جاء بعدهم ولا يُدانِيه، ومع هذا فقد كان يخفى على الواحد منهم مسائل يعلمها من هو دونه في العلم والرُتبة، وهذا باب واسع لا يسعه هذا الموضع، فإذا كان هذا حالهم فكيف بمن سواهم ومن بعدهم؟!

وإذا كان السابقون من الصحابة والتابعين أسدُّ وأوفق للحق في اجتهاداتهم ممن بعدهم، ومع ذلك ما وصف أحد منهم نفسه ولا أقواله بما يصفها به ذلك الموهوم، فكيف بمن بعدهم، فمن بعدهم، وكيف بهذا الخالف في آخر الزمان؟!!

ومـــن أَمِـــن الآفـــات عُجبـــاً برأيـــه آحاطـــت بـــه الآفـــات مـــن حيـــث يجهـــلُ

وقد كان من شأن أئمة الإسلام، وِصاية أتباعهم إذا رأوا الحق في غير أقوالهم أن يضربوا بها عرض الحائط، ولا يعدلوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن علموه قولَ أحدٍ سواه، وللأئمة الأربعة على سبيل المثال أقوال معلومة في هذا، وقد نظمها أحد المتأخرين في منظومة له يقول فيها:

وقـــول أعـــلام الهـــدى لا تعـــم بقولنـــا فـــي خُلـــفِ نَـــصٍ يُقبـــلُ
فيـــه دليـــل الأخـــذ بالحـــد وذاك فـــي القـــديم والحـــديثِ
قـــال أبـــو حنيفـــة الإم لا ينبغـــي لمـــن لـــه إســـلامُ
أخـــذٌ بـــأقواليَ حتـــى تـــع علـــى الكتـــاب والحـــديث المرتضـــى
ومالـــك إمـــام دار الهـــج قـــال وقـــد أشـــار نحـــو الحجـــرةِ
كـــل كـــلام منـــه ذو قـــب ومنـــه مـــردودٌ ســـوى الرســـولِ
والشـــافعيُّ قـــال إن رأي قـــولي مخالفـــاً لمـــا رويـــتمُ
مـــن الحـــديث فاضـــربوا الجـــد بقـــولي المخـــالف الأخبـــارا
وأحمـــدٌ قـــال لهـــم لا تكـــت مـــا قلتـــه بـــل أصـــل ذلـــك اطلبـــوا
دينـــك لا تقلـــد الـــرج حتـــى تـــرى أولاهمـــا مقـــالا
فاســـمع مقـــالات الهـــداة الأر واعمـــل بهـــا فـــإن فيهـــا منفعـــة
لقمعهـــا لكـــل ذي تـــع والمنصـــفون يكتفـــون بـــالنبي

فهؤلاء هم العلماء، وهم البدور في دياجير الظلماء، وتلك صفاتهم وحالهم تُعَرِّفُ كل ذي لب من يكون في زمرتهم ومن يكون من الأدعياء الدُخلاء!!

٩- يقول عبدالإله: (فرأيتَ لما يكون التَّوفيق والهدىٰ والسَّداد من اللَّه سابقًا في العبد كيف تكون التَّجلية، ودحر

التَّعمية؟!!).

١٠- ويقول: (رأيتَ كيف تكون الدّقة، لما تبني علىٰ حِقَّة مُحقَّة، وكيف يُتجنَّب السَّقط، والغلوّ والفَرْط، وهذا يهبه اللَّه تعالى قبل؛ لما يكون العلم الصحيح، والفهم الفسيح، سابقًا في عبده، ليُخرج دُرّه!! ربَّنا لا تُحرمنا هذه «الوسمة»، وإكمال المحرَّر بهذه «النعمة»).

قلت: هو في هذين الموضعين يثني على نفسه، والنقل الأول سيأتي بيان ما في كلامه الذي سبقه من فساد، ظنّهُ من التوفيق والهدى والسداد!

ولك أن تعجب كيف يوصله غُروره وإعجابه بنفسه إلى هذه الفاقرة، فيزعمُ سبقَ التوفيق والهداية والسداد له من رب العباد!! من الذي أطلعه على هذا؟! ومن أين له عِلْمُه؟!

في الصحيحين وغيرهما واللفظ لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).

قال المناوي رحمه الله: (فيه حث على لزوم الطاعات، ومراقبة الأوقات، خشية أن يكون ذلك آخر عمره، وزجر عن العجب والفرح بالأعمال، فرب متكل مغرور، فإن العبد لا يدري ما يصيبه في العاقبة[٦٢]).

فهل أمِنتَ يا هذا على نفسك من سوء الخاتمة؟! أم طمَّنك إبليس بأمانيه الآثمة؟! ووعوده ونفخته القاصمة؟!

قال الله تعالى عن إبليس: {لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)} [النساء].

وقال سبحانه: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)} [الإسراء].

ومن ظن بنفسه أنها قد سبق لها من الله الهُدى، فما أفلَتَ من شَرَكِ أمانيِّ إبليس ووعوده الكاذبة وما نجا!!

ويكأنه لم يسمع بأقوام غرهم إبليس، وغرتهم نفوسهم حتى قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فأكذبهم الله في زعمهم، وبيّن أنهم بشر كغيرهم فقال سبحانه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ

٦٢ فيض القدير (٢/٤١٥).

مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)} [المائدة].

وأولئك المنافقون غرهم إبليس بالأماني، فما استفاقوا حتى عاينوا العذاب، وما نفعهم الغَرُوْرُ يوم الحساب، قال الله تعالى حاكياً حالهم: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)}.

روى الطبري بإسناده عن قتادة قال: ({وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ} كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار).

قال الطبري رحمه الله: (وقوله: {وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} يقول: وخدعكم بالله الشيطان، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته، والسلامة من عذابه[٦٣]).

لا والله ما أمن على نفسه مؤمن، ولا أمن من مكر الله إلا خاسر، {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)} [الأعراف].

ولا والله ما كان المؤمنون إلا أخوف الناس على نفوسهم، قد ملأ قلوبهم الوجل، وما غرّهم ما قدموه من صالح العمل، كما قال فيهم ربنا عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)} [المؤمنون].

روى الترمذي[٦٤] بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: ((لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ})).

وبوَّبَ الإمام البخاري في صحيحة: (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر).

قال البخاري: ((وقال إبراهيم التيمي: (ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مُكذِباً)، وقال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلُّهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقولُ إنه على إيمان جبريل وميكائيل)، ويُذكر عن الحسن: (ما خافه إلا مؤمن، ولا أَمِنَهُ إلا منافق)).

قال الحافظ ابن رجب عليه رحمة الله: (وأما الأثر الذي ذكره عن الحسن: فقال: ويُذكر عن الحسن قال: ما خافه إلا مؤمن، ولا أَمِنَه إلا منافق، فهذا مشهور عن الحسن صحيح عنه، والعجب من قوله في هذا: ويُذكر، وفي قوله في الذي

٦٣ جامع البيان (١٨٥/٢٣).

٦٤ سنن الترمذي (٣١٧٥).

قبله: وقال ابن أبي مليكة جزماً[٦٥].

قال الإمام أحمد في كتاب الإيمان له: حدثنا مؤمل قال: سمعت حماد بن زيد قال: ثنا أيوب قال: سمعت الحسن يقول: (والله ما أصبح على وجه الأرض مؤمن ولا أمسى على وجهها مؤمن إلا وهو يخاف النفاق على نفسه، وما أَمِن النفاق إلا منافق)، حدثنا روح بن عبادة قال: ثنا هشام قال: سمعت الحسن يقول: (والله ما مضى مؤمنٌ ولا بقي إلا يخاف النفاق ولا أَمِنَه إلا منافق)، وروى جعفر الفريابي في كتاب صفة المنافق من حديث جعفر بن سليمان، عن معلى بن زياد قال: (سمعت الحسن يحلف في هذا المسجد بالله الذي لا إله إلا هو ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مُشفق، ولا مضى منافق ولا بقي إلا وهو من النفاق آمِن) قال: (وكان يقول: من لم يخف النفاق فهو منافق)، وعن حبيب بن الشهيد، عن الحسن قال: (إن القوم لما رأوا هذا النفاق يَغُوْلُ الإيمان لم يكن لهم هَمٌ غير النفاق) والروايات في هذا المعنى عن الحسن كثيرة[٦٦])ا.هـ

وقال الحسن البصري أيضاً رحمه الله: (إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً[٦٧]).

وقال أيضاً: (المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن[٦٨]).

وقال ابن القيم عليه رحمة الله: (والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن[٦٩]).

وقد وصف الله أهل الإيمان بالخشية والخوف مع الإحسان في آيات كثيرة، وبين سبحانه أنهم هم العلماء، وهم المتقون، وهم أولو الألباب، وأعقبهم جزاء ذلك رضوانَه وجنتَه، فمن ذلك قوله عز من قائل: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)} [الرعد].

وقوله في وصف المتقين: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)} [الأنبياء].

وقال في وصف أهل العلم: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)} [فاطر].

وقال سبحانه: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ

---

٦٥ قال الحافظ ابن رجب قبل الموضع المنقول عنه: (والأثر الذي ذكره البخاري عن ابن أبي مليكة، هو معروف عنه من رواية الصلت بن دينار عنه، وفي الصلت ضعف، وفي بعض الروايات عنه، عن ابن أبي مليكة قال: أدركت زيادة على خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات أحد منهم إلا وهو يخاف النفاق على نفسه).

٦٦ فتح الباري لابن رجب (١/١٩٥-١٩٧).

٦٧ جامع البيان (١٩/٤٥).

٦٨ تفسير القرآن العظيم (٣/٤٥١).

٦٩ الجواب الكافي (ص٤٠).

وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)} [النور].

وقال عز شأنه: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)} [الإنسان].

وقال سبحانه: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)} [السجدة].

وقال عز وجل: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)} [ق].

فانظر بم وصفهم ربهم في الآيات الأربعة السابقة، وكيف رتب على الوصف عظيم الجزاء.

وقال تقدس في سماه لرسوله ومصطفاه، آمراً له بالنذارة بما أنزله عليه من كلامه، مبيناً من ينتفع به من عباده: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)} [الأنعام].

ومثله قوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)} [ق].

وضد ما ذكره الله من وصف المؤمنين، قوله سبحانه عن الكافرين: {كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)} [المدثر].

والآيات في هذا الباب كثيرة، فليرعوي المغرور عن أمانيه، وليكفّ عن دعاويه، وليخش الله ويتقيه، فثمَّ مفتاح النجاة، وويل لمن منّاه إبليس فأغواه!! {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)} [لقمان].

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان أخوف الناس من ربه، وأخشاهم له، ففي الصحيحين وغيرهما أنه عليه الصلاة والسلام قال في غير حادثة: (والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له).

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة والمغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه!

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا رأى مَخِيْلَةً[٧٠] في السماء أقبلَ وأدبرَ، ودخلَ وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سُرِّيَ عنه، فَعَرَّفَتْهُ عائشة ذلك، فقال

٧٠ أي سحابة يُخال أنها ماطرة.

النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما أدري لعله كما قال قوم: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ} الآية)).

وأخرج الإمام أحمد[٧١] والنسائي وغيرهما عن مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه رضي الله عنه قال: (انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولصدره أزيز كأزيز المِرْجل) أي من البكاء.

وأخرج الترمذي وغيره بإسناده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: (شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت[٧٢]).

وعنده أيضاً[٧٣] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ) فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: (قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا).

وعنده أيضاً[٧٤] من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: (يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه).

هذه أمثلة قليلة مما كان عليه حاله عليه الصلاة والسلام وهو المُطهر المعصوم، فكيف بي وبك يا عبدالله وهل يأمن على نفسه إلا شقيٌ مُبْعدٌ محروم!!

وانظر بعدُ في حال الصحابة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، كيف كان حالهم وخوفهم من ربهم، ما قال أحد منهم: سبق لي من ربي التوفيق والرشاد والهدى! بل بقوا خائفين وجلين من يوم الحساب غدا، حتى تمنى بعضهم أنه لم يخلق أبدا!! فاقرأ سيرهم لتعلم كم في قلبي وقلبك من ران وصدا!!

قال ابن القيم رحمه الله: (من تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعاً بين التقصير بل التفريط والأمن!! فهذا الصديق رضي الله عنه يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن، ذكره أحمد عنه.

وذُكر عنه أيضاً أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيراً، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا! وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأُتي بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد، ولا قطعت شجرة من شجرة، إلا بما ضيعت من التسبيح!!

فلما احتضر، قال لعائشة: يا بنيَّة، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحلاب، وهذا العبد، فأسرعي به

---

٧١ مسند الإمام أحمد (٢٣٨/٢٦ وما بعدها).

٧٢ سنن الترمذي (٣٢٩٧).

٧٣ سنن الترمذي (٢٤٣١).

٧٤ سنن الترمذي (٢٤٥٧).

إلى ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه!!

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي، إن لم يغفر لي (ثلاثاً) ثم قضى.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يُعاد يحسبونه مريضاً، وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس، مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح وفعل، فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل

-إلى أن قال- وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي وحسوا مرقي[٧٥]).

فانظر حال هؤلاء وقد بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة! فيا لخسارته بعدهم من أَمِن! ويا لشقاوته من بنفسه اغترَّ وبعمله طَمِن!!

وما ذكرتُ إلا النزر اليسير من حالهم، وتتبع مثل هذا من أقوال الصحابة والتابعين والأئمة والعُبّاد والصالحين يحتاج إلى مصنف مستقل، وفيما ذُكِر موقظ لمن كان له قلب، وبالله التوفيق وبه العصمة.

١١- يقول صاحب التبصير: (أما ما نكتبه الآن وما مضىٰ، هو فقط للتَّجلية قبل التَّحلية، لينقشع في ذهنك البرهان، وترىٰ حقائق القرآن، والسُّلوك الصحيح في التَّأصيل، ووضع اللّبنات في التَّفصيل، فهذا المسلك هو المأمور به، وصاحبه مأجور رعا مقام النُّبوَّة).

١٢- ويقول: (ولقد عرض عليَّ «أخ» منذ أكثر من خمسة عشر سنة . في دار غير هذه الدَّار . سلسلة له في «أحكام الإيمان» وأصوله وفروعه عند «أهل السُّنَّة والجماعة»؛ لأخرجه من جوّ القَسْطَل، ومرّ الحنظل وأُهديه العسل في

٧٥ الجواب الكافي (٤٠-٤٢).

السَّيْطَل؛ فالأخ يثقُ في علمي، ويطمئن لفهمي، في ضبط المسائل، والقوَّة في جمع الوسائل، والإحسان في ردّ «الجُزئية» إلىٰ «الكُلّية»، وذلك فضل اللَّه يؤتيه مَن يشاء من العباد.).

١٣- ويقول: (فإن قلتَ: أرشدنا!!

قلنا: أليس لأجل ذلك حرَّرنا وزبَّرنا، وألبسنا هذا البحو الدُّرر وها نحن نُتمم بالمُسَطَّر!!).

١٤- ويقول: (فهذا الأخير مَنَاطه علىٰ «الوصف» فقط و«العذر بالجهل» أو «التَّأويل» غير مُعتبرين، وقد أجلينا من قبل الأمر وزبَّرناه بالدُّرر في السَّطر)).

١٥- ويقول: (فإن قال القائل: «الديمقراطية» ليس نظامًا وتوجهًا قائمًا بنفسه كما علَّلت بتعليلك الصَّائب، وتحريرك السائب!! بالخير، والدَّل على صحة السَّير، ونحن نشكرك، ولا نكفُرك).

قلت: كما ترى هكذا وهكذا يتمدح! وفي براثن العُجْبِ الفاتك يترنح!! لا يكاد يخرج من تيهٍ إلا إلا ويدخل في تيه! ولا ينفك من فَكِّ ضيغمٍ إلا وينشب في فَكِّ أخيه!!

ومن هوس العُجب أن تراه حتى في مقامِ: فإن قال قائل، يتمدح نيابة عن المعترض السائل!!

صدق والله وأحسن الوصف، من قال إن العُجب عائدٌ على عقلِ صاحبه بالضعف!!

أحمدك اللهم على العافية، وأسألك من أفضالك ونعمك الوافية الضافية..

ثم إني أتساءل أي حقائق للقرآن يزعم أنه يُرِي؟! ألا يستحيي هذا على نفسه ويرعوي؟! وأي تفصيل وتأصيل ورِعاية لمقام النبوة يدعي؟! أهي هذا العُجب وتلك الفواقر؟! أم تلك الفريات على الشيخ الأسير الثابتِ الصابر؟!! أم هي عبارات الفُحش والبذاءة التي يستبشعها كل طاهر؟!!

وما هو التحرير والتزبير؟! أهي الدعاوى الجوفاء الخاطئة الكاذبة عند من لم يكن عَمِيْ؟! أم هي مطية العطب، والبعير الأجرب: (نا) (وقلنا) (وفعلنا) (وعلمي) (وفهمي)!!

وما هي في قاموس (العلامة) الدرر؟! أتلك هي التي يعرفها بنو البشر؟! أم هي كما يظهر: كلُّ ما كان مُدَوَّر؟!! فنَمُرَّ حينها مرَّ الكرام ولا نستنكر!!

١٦- ويقول: (وردمنا مَن اعتمد علىٰ قصة «حاطب بن أبي بلتعة» في عدم تكفير الجاسوس المُعِين. إذا كان العدو طالبًا غير مطلوبٍ. بتحقيق حبير وجلاء كبير؛ لم أُسبق إليه سميناه: «دَحْرُ المُعْتَضِد بِقِصَة حَاطب فِي عَدَم تَكْفِير الجَاسُوس المُخَاطِب»، فليرجع إليه مَن يُريد فهم هذه الحقائق، والغوص في الدَّقائق، ولا يصلح «الكتاب» للمبتدىء، أو المُتَوسط، في العلم، وإنما لمَن قطع شوطًا كبيرًا في تحقيق الفهم).

قلت: لا تغرَّنك أيها الناظر هذه العبارات، ولا تعجل بذم قائلها فإن له من ذاته جذبات!! يفنى فيها عن شهود كل مخلوق

سواها!! ويعمى عن رؤية كل محسوس إلا إياها!!

فلا تعجل في الأمر، فقد أوضحت لك العُذر!!

وقد قرأت كتابه هذا، وأنصح كل طالب علم أن يقرأه، ففيه هُرَاء يتضح له بجلاء!!

ومن اشتبه عليه الأمر، وأراد معرفة مستوى هذا الكتاب ومرتبته في العلم، فليطالع هذه الكتب:

– الشهاب الثاقب في الرد على من افترى على الصحابي حاطب، للشيخ أبي محمد المقدسي فك الله أسره.

– المُعلم في حكم الجاسوس المسلم، للشيخ أبي يحيى الليبي حفظه الله.

– تقرير القرآن العظيم في حكم موالاة الكافرين– الطبعة الثانية–.

والأخير فيه بعض هنات لا يوافق عليها، إلا أن الكتاب في جملته نفيس، وفيه استنباطات رائعة ودقيقة لا أعلم أسبقية أحد إليها قبل صاحب الكتاب.

وهذه الكتب الثلاثة بينها تباين واختلاف في فهم قصة حاطب، وليست على رأي واحد، لكنها جيدة إجمالاً للتعريف بمسالك الاستدلال الصحيحة في هذا الباب، وهي على اختلافها صور حسنة من صور الاجتهاد الذي كَثُر مُدَّعوه وقَلَّ أهلُهُ وذووه!

ومن قرأ هذه الكتب وفهمها كحدٍ أدنى في هذا الباب، فلا أظنه إلا سيوافقني أن صاحب هذه العبارات التي يمدح بها كتابه ينبغي أن تُفرك أُذُنه ليعرف مقداره!!

١٧– ويقول: (ولقد تطرقت إلىٰ هذا التَّعطيل في كتابي الذي جعلته مقدمة ومدخلاً إلىٰ فهم العقيدة . وقد ذكرته سابقًا . ، والذي لا يستغني عنه «العالم» أو «الجاهل»).

وقفتُ كثيراً عند عبارته الأخيرة لأفهم أيُّ نفسية هذه التي تحمل صاحبها على مثل هذا القول!! وأي شكل من أشكال الرؤوس يمكن أن تخرج منه مثل هذه العبارة!!

لا أدري هل العُجْب يصيب صاحبهُ بحكةٍ جلدية حادة لا تهدأ إلا بالتمدح حدَّ الهذيان؟!!

أعوذ بالله من سخطه ومقته..

فلتخبرنا أيها (العلامة): أي علمٍ في كتابك خَلِيَ من صدور العالمين وسطورهم، حتى رأيته بتلك المرتبة!!

وأخبرنا كم فات من مات من حظِّ علومك وفهومك!!

وأخبرنا عن علماء العصر من أهل السنة هل فهموا العقيدة كما ينبغي! أم أن فهمهم لا ولن يتم حتى يقرأوا كتابك الذي

حوى جليل العلوم! ودقيق الفهوم!

حسبنا والله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل!

تأمل أيها القارئ في هذه العبارة التي سأضعها لك، واقرن بينها وبين عبارة صاحب التبصير، ليتضح لك في أي مهلكة يسير:

(إن ما في هذا الكتاب من الحقائق الأزلية الأبدية التي تفتقدها أمة فتهوى، وتأخذ بها أمة فتنهض، ولن يوجد مسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أراد حياة صحيحة).

هل ترى فرقاً بين هذا النص، وبين تلك؟!!

بلا شك أن النفسية التي تحمِل على كتابة العبارة الأولى، هي نفسها التي تفعل ذلك في الثانية، فالداء واحد، وإن اختلفت الأشكال!!

كأني بك في شوق لمعرفة صاحبها! فاسمع الخبر، لتستعيذ بالله من هذا الشرّ!!

قائل هذه العبارة رجل خاض بحر العلم، وبلغ الغاية في الفهم، سطع في الأرض نجمه، وسارت الركبان بذكرِ اسمِه، كان عالِماً سُنيّا، أديباً ألمعياً ذكيا..

دافع عن عرين الإسلام والسُنة، حتى حُكي عن بعض أهل العلم أنه قال فيه –ولا تُقَرّ–: ما ضَرَّهُ ما عمِل، لقد دفع مَهْرَ الجنة!! وقال يصف مرتبته العلمية: لا يُطاوِلُ رأسَهُ إلا رأسُ ابن تيمية!!

وقال فيه الشيخ محمد رشيد رضا: (إنه اكتسح العلماء بمعرفته وأخجلهم، هذه المعركة التي خاضها مع علماء الأزهر أكسبته شعبية واسعة في أوساط حركات التجديد الإسلامية).

وألف إمام الحرم المكي في وقته عبدالظاهر أبو السمح، قصيدة يمدحه فيها ويمدح كتاباً له اسمه (الصراع بين الإسلام والوثنية)، يقول فيها:

ألا لله مـــــا خـــــط اليـــــر ... لنصـــــر الـــــدين واحتـــــدم الصـــــراع
صـــــــــراع لا يماثلـــــــــه ص ... تميـــــد بـــــه الأبـــــاطح والـــــتلاع
صـــــــــراع لا يماثلـــــــــه ص ... يقـــــــوم بـــــــه (.) الشـــــــجاع
خبيـــــــر بالبطولـــــــة عـــــــب ... لـــــه فـــــي العلـــــم والبرهـــــان بـــــاع
يقـــــول الحـــــق لا يخشـــــى مـــــلا ... وذلـــــك عنـــــده نعـــــم المتـــــاع
يريـــــك صـــــراعه أســـــداً هصـــــو ... لـــــه فـــــي خصـــــمه أمـــــر مطـــــاع
كـــــأن بيانـــــه ســـــيل أ ... تفـــــيض بـــــه المســـــالك والبقـــــاع
تســـــايره جنـــــود الحـــــق ... لتخشـــــاه الأســـــاود والســـــباع

إلـــــى صـــــرعاه فـــــانظر كيـــــف أم علـــــيهم مـــــن مـــــذلتهم رقـــــاع

إلى آخر أبياته، وهي قصيدة طويلة ماتعة.

ومع كل هذا فقد كانت في هذا الرجل –الذي قال تلك العبارة– خصلة تُذَمّ! فقد كان شديد الإعجاب بنفسه وقد انتقده على ذلك بعض أهل العلم، وكثيراً ما كان يرقم عبارات المديح لنفسه في كتبه، ويكتب القصائد ويملؤها بالثناء والعُجْب بصفاته، فمن ذلك قوله في مطلع كتاب له:

لـــو أنصـــفوا كنـــت المقـــدم فـــي الأ ولـــم يطلبـــوا غيـــري لـــدى الحـــادث النكـــرِ
ولـــــم يرغبـــــوا إلا إلـــــيّ إذا ابـــــت رشـــــاداً وحزمـــــاً يعزبـــــان عـــــن الفكـــــرِ
ولـــم يـــذكروا غيـــري متـــى ذكـــر ال ولـــم يبصـــروا غيـــري لـــدى غيبـــة البـــدرِ
فمـــا أنـــا إلا الشـــمس فـــي غيـــر بـــر ومـــا أنـــا إلا الـــدر فـــي لجـــج البحـــرِ

إلى آخر أبياته..

ويقول في قصيدة له مخاطباً عشيرته:

حاشـــا لهـــم أن يعـــدلوا بـــي واحـــداً مـــن بعـــد مـــا وضَـــحَتْ لهـــم أنبـــائي
وأعيـــذهم مـــن أن يعيـــل أديـــبهم وأديـــب كـــل النـــاس فـــي النعمـــاء
رفـــق العـــذول فمـــا أطـــوق لومـــه حســـبي زمـــاني لائمـــاً وقضـــائي
عـــابوا علـــيّ تحـــدثي وتمـــدحي بأصـــالتي وشـــجاعتي وذكـــائي
إن لـــم يُـــبِح مـــدحَ الفتـــى أخلاقُـــه بيضـــا فـــأي تمـــدحٍ وثنـــاء؟

ويقول في قصيدة له في مطلع كتاب من كتبه التي حظِيَت بالمكانة عند العلماء:

أتيـــتُ مهيبـــاً كالحســـام مُعظمـــاً ونبـــراس ظلمـــاء يضـــيء ومـــا يخبـــا
بـــه رفقتـــي يهـــدون إن ضـــل هـــديهم ويســـرون إن ضـــلوا الأهلـــة والشـــهبا
بعـــزم كعـــزم الشـــمس فـــي وجـــه ســـيرها فـــلا هـــول يثنـــي مـــا أهـــاب ومـــا أربـــى
وحـــدس بســـر الـــنفس والقلـــب بـــائح فمـــا ســـهمه نـــابٍ ولا زنـــده مخبـــى
إذا قلـــت قـــولاً أمّـــن الـــدهر واســـتحى وهـــاب مقـــالي أن ينازعـــه الـــدربا!

إلى أن قال في آخر بيت في قصيدته:

لـــئن كنـــتُ فـــي نفســـي زهـــوّاً ومعجبـــاً فـــبعض الـــذي فيهـــا يُمَلِّئنـــي عُجْبـــا!!

وما زال به الإعجاب بنفسه حتى أوصله إلى كتابة أبيات كُفرية والعياذ بالله، فمن ذلك أنه قال:

ولــو أن مــا عنــدي مــن العلــم والفضــل يقســم فــي الآفــاق أغنــى عــن الرُسْــلِ!!

وذُكرَ عنه أنه قرأ كتاباً للمتنبي فكتب على هامشه:

كفــى أحمــداً أنــي نظــرتُ كتابــه لأن يــدعي أن الإلــه مخاطبــه!!
ولــو شــامني أنــي قــرأت كتابــه لقــال إلــه الكــون إنــي وخالقــه!!

ولم تتوقف غوايته عند هذا الحد، بل ما زال به الأمر حتى انقلب على عقيبه وانسلخ من دين الإسلام كليةً!! وألحد وتزندق!! وألف كتباً مليئة بالكفر والإلحاد!! بعد أن كان منافحاً مدافعاً عن عرين الإسلام والسنة!! بل تعدى ذلك حتى أنكر وجود الله عز وجل!! وعلى ذلك هلك!! نسأل الله حُسن الختام، ونعوذ به من سوء المنقلب..

هذه هي قصة عبدالله بن علي القصيمي[٧٦] باختصار شديد، قصةٌ من أعجبِ ما يمكن أن يسمعه المرء من قصص الارتداد في العصر الحاضر، وأَقْنَعُ ما فُسِّر به تحوله المفجع من الأسباب الظاهرة بعد تقدير الله وإرادته هو ذلك العُجب الذي ملأ عليه قلبه، نعوذ من العُجب ومن سوء الخاتمة {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)} [آل عمران].

وإنها والله لتذكرة لمن تذكر، وعبرة لمن اعتبر، وحريٌ بمن سمعها أو وقف عليها أن يلهج بـ: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، وأن يُكثر من دعاء ربه أن لا يكِله إلا نفسه طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك، وأن يمرغ وجهه، وينطرح بين يدي خالقه يدعوه: اللهم إني أعوذ بك أن أكون في نفسي عظيماً وأكون عندك حقيرا، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)} [ق]، {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)} [البقرة].

فتأمل بعد هذا في عبارة القصيمي الملحد التي يمدح بها أحد كتبه، وعبارة صاحب التبصير في مدح كتابه، هل ترى بين العبارتين فرقا؟! أم أن بينهما في نظرِ كلِّ بصيرٍ وشيجةً وُثْقى؟!

فأمهما العُجْبُ وأبوهما إبليس الأشقى!! وتلك عَقْرَى وهذه أُختها حَلْقَى؟!!

فويلٌ بعد هذا لمن لا يتعظ وعلى غيِّهِ يُصِرُّ ويبقى!!

روى البيهقي بإسناده عن عبدالله بن المبارك رحمه الله أنه سُئل: ما الكبر؟ قال: (أن تزدري الناس)، وسُئل عن العُجب؟

٧٦ انظر للاستزادة كتاب: عبدالله القصيمي وجهة نظر أخرى، للخراشي.

قال: (أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك)، قال: (ولا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجْب[٧٧]).

ولا يُتصوّرُ أن تخرج تلك العبارات إلا من مُزدرٍ للناس، يرى أن عنده ما ليس عندهم، والله العاصم وحده من هذا الضلال، والصارفُ للعالِمين عن تلك الخِلال..

هذه بعض النصوص من كتاب التبصير ولم أنقل كل ما وقفت عليه، وبين يدي غيرها وغيرها من نفس كتابه هذا فقط!! ولعلّ بعضها يورد فيما يأتي، والله الموفق..

الصفة الثانية:

الفُحش والبذاءة في البيان، وذرابة اللسان! التي يستشنعها ويستبشعها ذوو الخُلُق والإيمان، ولو خرجت تلك العبارات مرة أو مرتين أو ثلاثاً لاحتُمِل الأمر وهان، ولكنها صفة لصاحبها مُلازمة! يملأ بها كتاباته! ويُكَثِّر بها عباراته!! بصورة ليس لها مثيل! حتى إن الناظر ليَخَال مداده بدونها لا يسيل!! فتراه برقمها يستروِح! وبتكرارها يظن أنه يتجلَّد ويستفصح!! والحقُّ أنه يتبلَّد ويستفضح!!

وهاك أمثلة شاهدة من كتابه التبصير، ليس غير:

١- يقول: (والتَّجرؤ علىٰ «العلم»، ولَّد بلوَىٰ، ظنّها «النّصفيون»، و«الرُّبعيون» . في علمهم . والأطرياء . في عودهم . ، وأصحاب العاطفة والإنشاء، حلْوَة، فيها سمٌّ مدسوس، وباطلٌ مغروس، مَن أكلها نفَّخَت له البَطن، وأَوَتْه إلىٰ العَطَن، يُبعّر الباطل، ويغوّط العاطل. اللَّهمَّ غُفرًا).

٢- ويقول: (فهل أصبحت قرآنيًا؟! تستدل بالدَّليل القرآني، وتضرط في الشَّارح البياني؛ «السُّنَّة» القائدة لرياض الجنَّة).

٣- ويقول: (و«الجهمية»، و«المرجئة» نهقت، وضرطت، وبعَّدت . نعوذ باللَّه . من هذا البَوْل، الذي يقود للهول، بذاك السَّوْل).

٤- ويقول: (ما تركنا ذلك ليشرد، ولا لكلمة «الديمقراطية» أَن تتفرد، بل يأتي في الآتي المزبَّر، بفقهٍ محرَّر، يقبله الفَحْلُ، ويردُّه البَغْلُ . في فهمه وتصوره لرؤية الحقائق).

٥- ويقول: (والتَّأويل المُعتبر في «المُكَفِّر بِغَيْرِهِ»، هو التأويل المُستساغ الذي له وجهٌ في «العربية» ولو كان ضعيفًا، وهذا من عوارضه أنه يهجم علىٰ الفهم . لورود شبهة معيَّنة . تصرف صاحبه عن الحقّ، فيقع بذلك في المخالفة، وهو لا يقصد المخالفة ولا المعاندة للشريعة. ولا يُبرّأ منه إنسان مهما بلغ من العلم، فقد يقع فيه الجهبذ المحبّر، و«النصفيُّ» أو «الرُّبعيُّ» المُبَعّر، إلَّا أنَّ الأخير يرتع في الزَّريبة يجتر ويبعر، لأنه مُكثرٌ منه، لقلَّة العلم، وتفلُّت منه الفهم).

٦- ويقول: (فانظروا . يرعاكم اللَّه . لما «النصفيُّ» و«الرُّبعيُّ» والكاتب «الإنشائيُّ» . في فهمه وعلمه . ، يتقَحَّم قبل أَن

---

٧٧ شعب الإيمان (١٠/٥١٤).

يتعلَّم، ولا يُميّز في «الحقيقة المطلقة» ومعانيها، بين الإطلاق والتَّقييد . في «النَّفي» و«الإثبات» . ، وأنَّ «الحقيقة المُطلقة» تجمع جميع الأوصاف . من باب دخول الأدنىٰ في الأعلىٰ وشمول الأعلىٰ لجميع الأوصاف . وتتعدَّد فيها «الأحكام»، هذا إذا كان ذلك إلَّا في «الحقيقة الشَّرعية» فكيف بـ«الحقيقة الوافدة»؛ متعدّدة المعاني والمفاهيم، لما فيها من تعتيم، وطرحٍ واجب التَّسليم!! كيف للأصل يُعَوِّر، وفوقه يضرط ويُبَعِّر، وهل ما هو واقع من فتنة بين الأمَّة؛ بتلك الغُمَّة، إلَّا بسبب هٰؤلاء الذين تزبَّبوا قبل أَن يَتَحصرموا، ودخلوا الباب من الجهة المنهيِّ عنها مع ما معهم من مُعاب، وأُلقي عليهم ألقاب هلَّالة، وأسماءٍ صوَّالة كـ«فضيلة الشَّيخ»، و«بقية السَّلف» و«فريد ومجدّد عصره» وغيرها، وما حوىٰ فهمهم، وتحريرهم إلَّا العُفارة والزُّبالة!! اللَّهمَّ غُفرًا.).

٧- ويقول: (قلنا: لكن هل كلّ ما هو فيه يُخالف الشَّرع ويُناقضه؟! زيادة علىٰ أنَّ «الزنديق» الواضع له كفره طارىء غير أصلي، بسبب اعتبار «القوانين الوضعية» وتنحية الشَّرع ومناقضته ومزاحمته بآراء الكفَّار!!

فإن قلتَ: نعم!! قلنا: أفْرَطت، وسفسطت، وفوق الحقائق بَعَّرْت).

٨- ويقول: (فما ذكرت في السُّؤال، من المَحال أَن يتجنَّب «النّصفيُّ»، أو «الرُّبعيُّ» سُمَّه، وتأثير همّه، بل يدخلان فيه، ويلجان ديوانه، ويتناولان قتَّاله، يظنَّان أنه عسلٌ وحلوة، وإن هو إلَّا غمّ وهمّ وبلوىٰ، ويسرحان ويمرحان، ويظنَّان أنهم محقّقان مُجليان، من بقية «السَّلف»، التي تهدي «الخلف»، وإنما هما يدعوان إلىٰ النَّار والعار ومسلك البوار، ويظنَّان . بما كتبا وحقَّقا . يدعوان لدار الأبرار.فيضربان النُّصوص ببعضها بعض، لقلَّة ما معهم من حظّ . في «الفهم» و«العلم» . ، ثمَّ يتفق مع ذلك ما معهم من ميل لويلٍ، سبق إلىٰ العقد . من شُبهة قتَّالة، ومرجوحة بل طريحةٍ زبَّالة . ، وبَولٍ شيطاني..).

٩- ويقول: (فإن قلتَ: ما هو هذا الفهم، وما تعني بقولك، أتستهزأ بي؟!

قلتُ: لا! لا! ضع حجرًا في سروالك، واسمع لِمَا يشكف عن حالك!!

الفهم «الأزرقيُّ» و«الصُفريُّ» فهم يبول فيه الشَّيطان، فيقع الطَّن للأذن . اليُمنىٰ . ، فتسمع اليسرىٰ الظَّاهر الطَّاهر، واليمنىٰ لا تسمع الظَّاهر الذي يُفسّره، فيقع الغبن في الفهم، ولأذن اليمنىٰ الصُّم، والقراءة للمفاهيم في تلك الحالة تكون عكسية، بل «حِمَارية وحشية» والقراءة الحمارية الوحشية:
تُروّث فوق الأصل، وتبول فوق الفصل ثمَّ الصَّك للكلّية، وتُغبّر علىٰ الجزئية، والدَّهس للفرع، والبروك فوق الخَرِع، فتبقر أمعاءه لضعفه. وأنَّىٰ لك بتلك الحالة أَن تسمع أو تقول وتنفع!!).

١٠- ويقول: (لنعرض نصوص «تعطيل» و«تبديل» «العُبيدية»، لتكون النَّظرة والتَّحقيقة مهدية، فالحكم فرع عن التَّصور، وإن لم يُعط حقّه هجم التَّهوُّر، ودخلنا بذلك باب التَّحريف . للمعنىٰ أو اللَّفظ . وهجم بعد ذلك بضَرطه وفَرْطه السَّخيف).

قال عبدالله أبو الحسن: فانظر رحمني الله وإياك إلى هذه النقول وما حوته من ألفاظ بذيئة، وكلماتٍ سيئةٍ رديئة، وما أحسب الناظر جنبني الله وإياه مساوئ الأخلاق، بقارئ أو سامع لمثل هذه الكلمات بالقَدْرِ الذي رأى إلا في مجامع

الطغام والأراذل والفساق! فأما محاضر العلم والمكارم والخير، فليس لتلك الكلمات في رياضها مأوى، وأهلها عنها بمنأى..

قال الغزالي رحمه الله: (الباعث على الفحش إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومَن عادتهم السب[٧٨]).

وقال أيضاً: (وهو –أي الفحش– مذموم ومنهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم[٧٩]).

وكما قيل:

إنما الفحش ومن يُعنى به	كغراب السوء ما شاء نعق
أو حمار السوء إن أشبعته	رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلام السوء إن جوعته	سرق الجار وإن يشبع فسق

وأهل العلم والهدى من أنزه الناس عن الفُحش والبذا، وأبعدهم عن قالِ السوء والأذى، وإن استعملها بعضهم فلسببٍ إذ ذاك مُبِيح، فأما أن تكون لهم سِمَةً وديدناً فذا إفكٌ عليهم قبيح!

وإنما العالم كما وصفه الإمام الآجري رحمه الله: (عالم بما يجتلب به الطاعات، عالم بما يدفع به البليات، قد اعتقد الأخلاق السَنيَّة، واعتزل الأخلاق الدنية[٨٠]).

في الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وإنه كان يقول: ((إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً)).

قال ابن بطال رحمه الله: (قال الطبرى: الفاحش: البذيء اللسان، وأصل الفحش عند العرب في كل شيء خروجٌ عن مقداره وحدِّه حتى يستقبح، ولذلك يقال للرجل المفرط الطول الخارج عن طول الناس المستحسن: فاحش الطول، يراد به قبيح الطول، غير أن أكثر ما استعمل ذلك في الإنسان إذا وصف بشيء، فالأغلب أن معناه فاحشٌ منطقه، بذيءٌ لسانه[٨١]).

وقال القاسمي رحمه الله، وأصل الكلام للغزالي واختصره: (وحَدُّ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يدلون عليها بالرموز والكناية، قال ابن عباس: إن الله حيي كريم، يعفو ويكنو، كنى

---

٧٨ موعظة المؤمنين للقاسمي، مختصر الإحياء (ص١٩١).

٧٩ السابق (ص١٩٠).

٨٠ أخلاق العلماء (ص٤٧).

٨١ شرح صحيح البخاري له (٩/٢٢٩).

باللمس عن الجماع.

فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وكل ما يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش).

قال ابن بطال رحمه الله: (والفحش والبذاء مذموم كله، وليس من أخلاق المؤمنين –إلى أن قال– فينبغي لمن ألهمه الله رشده أن يتجنبه ويعود لسانه طيب القول، ويقتدي في ذلك بالأنبياء عليهم السلام فهم الأسوة الحسنة[٨٢]).

وروى الترمذي[٨٣] بإسناده عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد[٨٤] بإسناده عن أبي هريرة، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: (إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات عند الله يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش، وإياكم والشح، فإنه دعا من قبلكم فاستحلوا محارمهم، وسفكوا دماءهم، وقطعوا أرحامهم).

فأقبِح بخُلُق يبغضه الله، وأقبِح بمن يتكثر مما يبغضه الله!!

وأخرج الترمذي[٨٥] وغيره من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء)، قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقال الحافظ العراقي[٨٦]: إسناده صحيح.

فمن اتصف بواحدة من هذه الصفات الأربع فما أتى بالإيمان الواجب الذي يستحق معه النجاة من غير عقوبة، بل إيمانه ناقصٌ نقصاً يستحق معه العقاب، إذ نفيُ كونِ المتصف بواحدة من هذه الصفات مؤمناً دالٌ على كونها من كبائر الذنوب، فالإيمان لا يُنفى على لسان الشارع إلا لنقصٍ أو نقصٍ، والأول هو الأصل، ويُعلم كون الثاني هو مراد الشارع بالقرائن والأدلة، والنفي في هذا الحديث من قبيل الثاني إجماعاً، وله عن الأول صوارف كثيرة ليس هذا موضعها.

فما أحرى الواقع في أحد تلك الكبائر بالاشتغال بنفسه، وأَطْرِها على التوبة والإنابة، قبل أن يشتغل بأحوال عامة المسلمين! وما أحراه بوعظ نفسه وزجرها عن مقارفة العظائم، قبل أن يخرج على الناس مختالاً يصف بعض من لعله عند الله خير منه بالأقذار وفِعال البهائم!!

---

٨٢ (٩/٢٣٠).

٨٣ سنن الترمذي (٢٠٠٢).

٨٤ المسند (١٥/٣٤٩-٣٥٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٨٥ سنن الترمذي (١٩٧٧).

٨٦ المغني عن حمل الأسفار (٢/٧٨٢).

وفي مسند الإمام أحمد[٨٧] وغيره عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (كنت في مجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم، قال: وأبي سمرة جالس أمامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام، وإن أحسن الناس إسلاماً، أحسنهم خلقاً)).

وفي رواية[٨٨]: (إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء).

قال الحافظ العراقي رحمه الله: إسناده صحيح[٨٩].

وقال الهيثمي رحمه الله: رجاله ثقات[٩٠].

وقال المنذري رحمه الله: (رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد جيد ورواته ثقات[٩١]).

قلت: وقوله عليه الصلاة والسلام (ليسا من الإسلام في شيء)، يدل على عِظم قبحهما، وشدة خطرهما، وفيه تحذير وتنفير للمسلم من مقارفة هذا الذنب والاتصاف به، إذ وقوعه فيه واتصافه به وقوعٌ واتصافٌ بما هو خارجٌ عن الإسلام، ولا ثمّ غير الإسلام إلا الكفر، لكن الكفر منه الأصغر ومنه الأكبر، وهو ذو خصالٍ وشعب كما أن للإيمان خصالاً وشعباً، وكون المرء يقع في خصلة من خصال الكفر لا يسلتزم الحكم عليه بالكفر، فمقارفة الجزئي لا يسلتزم استحقاق الحكم الكلي، بل خصال الكفر وشُعَبُه منها ما يُنقِص الإيمان الواجبَ مقارفَتُه كهاتين المعصيتين، ومنها ما ينقضه، والمَرَدُّ للأدلة.

يوضح هذا أن المعاصي كلها من شعب الكفر وخصاله، لكن يجدر التنبيه إلى أنّ ما تقرر كونه معصية لا تُخرِج عن الإسلام ونصَّ الشارع على كونها كُفراً، أو سَلَبَ اسم الإيمان عن فاعلها، أو وصفها بأنها ليست من الإسلام في شيء، أو وصف مُقارفها بالكفر، يجعلها أعظم وأخطر وأقرب إلى الكفر الكلي من معصية لم يرد فيها تنصيص، وإن صحّ اندراج هذه وتلك تحت عموم: كل المعاصي من شعب الكفر.

ويتضح مما تقدم أن هذه العبارة (ليس من الإسلام في شيء) لا تدل على تعيين مرتبة الموصوف بها من الأقوال والأفعال وكونه ناقضاً للإيمان أو مُنقصاً منه بمجردها، بل لا بد من النظر في القرائن والأدلة لمعرفة الرتبة الصحيحة التي أرادها الشارع.

وكذلك يقال في استعمال أهل العلم لهذه العبارة، وبحسب ما وقفت عليه من كلامهم فقد رأيت استعمالهم لها فيما هو كفر وفيما هو دونه وخاصة ما كان من البدع، فأما إطلاق هذه العبارة على المعين فالظاهر أنه كالتكفير سواء والله أعلم.

---

٨٧ (٤٢٢/٣٤)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وإسناده محتمل للتحسين.

٨٨ (٤٧٩/٣٤).

٨٩ المغني عن حمل الأسفار (٣٨٤/٢).

٩٠ مجمع الزوائد (٢٥/٨).

٩١ الترغيب والترهيب (٢٧٥/٣).

وأخرج أبو داود بإسناده عن لقيط بن صبرة رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا رسول الله، إن لي امرأة وإن في لسانها شيئاً – يعني البذاء – قال: ((فطلقها إذاً)) ، قال: قلت: يا رسول الله إن لها صحبة ولي منها ولد، قال: ((فمُرْها)) يقول: عِظْها فإن يك فيها خير فستفعل[٩٢]).

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن لهذا الصحابي بتطليق امرأته للبذاء، ومعلوم حرص الشارع على تآلف القلوب وتحابها، وحياطته البالغة للدعائم الأُسرية من كل ما يقوضها، وعنايته العظيمة بالوشائج الزوجية وما يقويها، وتحذيره مما يقطعها أو يوهيها، فلما أذن لهذا الصحابي بصرم حبال الوصال، دلّ على قباحة ذلك المُوصلِ إلى هذه الحال!!

وأخرج ابن حبان في صحيحه[٩٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش، والبخل، ويخون الأمين، ويؤتمن الخائن، ويهلك الوعول، وتظهر التحُوت) قالوا: يا رسول الله وما الوعول والتحُوت؟ قال: (الوعول: وجوه الناس وأشرافهم، والتحُوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم).

والحديث أورده الشيخ الألباني رحمه الله في السلسة الصحيحة[٩٤]، وقال صحيح لغيره.

وروى الترمذي[٩٥] وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الإمام ابن حبان رحمه الله: (الحياء من الإيمان، والمؤمن في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجافي في النار إلا أن يتفضل الله عليه برحمته فيخلصه منه، فإذا لزم المرء الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة، كما أن الواقع إذا لزم البذاء كان وجود الخير منه معدوماً، وتواترُ الشر منه موجوداً، لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها، فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها، ولقد أحسن الذي يقول:

ورب قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياء فلا دواء[٩٦]).

ثم روى بإسناده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: (من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله).

---

٩٢ سنن أبو داود (١٤٢).

٩٣ (٢٥٨/١٥) ط-الرسالة.

٩٤ (٣٢١١).

٩٥ سنن الترمذي (٢٠٠٩).

٩٦ روضة العقلاء (ص٥٧-٥٨).

قال ابن حبان: (الواجب على العاقل أن يُعوِّد نفسه لزوم الحياء من الناس، وإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال المحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة، كما أن من أعظم بركة الحياء من الله الفوز من النار بلزوم الحياء عند مجانبة ما نهى الله عنه، لأن ابن آدم مطبوع على الكرم واللؤم معاً في المعاملة بينه وبين الله، والعشرة بينه وبين المخلوقين، وإذا قوي حياؤه قوي كرمه وضعف لؤمه، وإذا ضعف حياؤه قوي لؤمه وضعف كرمه، ولقد أنشدني علي بن محمد البسامي:

إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً ... تقلب في الأمور كما يشاء
ولم يك للدواء ولا لشيء ... يعالجه به فيه غناء
فما لك في معاتبة الذي لا ... حياء لوجهه إلا العناء[٩٧]).

وروى البخاري في الأدب المفرد[٩٨] بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ألأم خُلُق المؤمن الفحش).

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت[٩٩] بإسناده عن عون بن عبدالله رحمه الله قال: (ألا إن الفحش والبذاء من النفاق، وهن مما يزدن في الدنيا وينقصن في الآخرة، وما ينقصن في الآخرة أكثر مما يزدن في الدنيا).

والأحاديث والآثار في ذم الفحش والبذاء أكثر من أن تستوعب في هذا الموطن، وقد ذكرتُ ما يكفي المسلم، وبالله نلوذ ونعتصم.

١١- يقول صاحب التبصير: (ولقد اتفق لي مرَّة وسُئلتُ عن رجلٍ يُجيز النكاح في الدُّبر . أعني: دُبر النّساء . ، وكان جهميًا . من المذهب «الجامي» الجديد . .

فقال السَّائل: يا شيخنا! فلان يجيز النكاح في الدُّبر!!

فقلتُ: هو منكوحُ العقيدة!!

قال كيف يا شيخنا!!

قلتُ: قبل أَن يُجيز نكاح دبر النّساء؛ «الجهمية» . الجامية . نكحت عقيدته وفجرت فيها ومَنِيّها كان منه هذا!!

فكان السَّائل ما جلس مجلسًا إلَّا وذكرها ليُضحك المجلس).

قلت: تأمل هذا البذاء والفُحش، وكيف يُقحِّمُ صاحبه على هذا الكلام المُستبشع، والكذب الممجوج المستقبح!

---

٩٧ (ص٥٨).

٩٨ الأدب المفرد (ص١١٧)ط٣- بشائر.

٩٩ الصمت (ص١٨٦)، وصحح إسناده الحويني.

لا أدري لماذا كل هذا الشغف بتلك الألفاظ البذيئة، والمُثُل القبيحة، وكأني بقائلها لا يستحلي الكتابة حتى يُعرِّج على شؤون النصف التحتاني من جسم الإنسان!!

ألا يدري أنه مهما كانت شناعة قول المخالف فلا يُجِيز لنا ذلك بحال أن نستبيح الكلام فيه بغير حق، أو أن نفري في عرضه بالفحش، فالله أمرنا بالقسط والعدل، ونهانا عن البغي والظلم حتى مع عدونا وعدِّوه من الكافرين، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)} [المائدة].

أم أن (المحقق المدقق!) قد امتلأ وِعاؤه بأشياء غير نظيفة، ولابد أن ينضح في كل مرة على الناس من (بركات) وعائه!!

يقول ابن الجوزي رحمه الله: (كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، وهي تقدح في الأصول، كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه، وقصد الدخول على من يأكل ليأكل معه، وتناول طعام لم يدع الإنسان إليه، والتسامح بعرض العدو التذاذًا بذلك، واستصغارًا لمثل هذا الذنب، وإطلاق البصر هوانًا بتلك الخطيئة، وفتوى من لا يعلم لئلَّا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا وهو عظيم.

وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عند الحق –إلى أن قال– فالله الله.. اسمعوا ممن قد جرَّب.. كونوا على مراقبة.. وانظروا في العواقب.. واعرفوا عظمة الناهي.. واحذروا من نفخة تُحتَقَر، وشررة تُستصغر، فربما أحرقت بلداً! وهذا الذي أشرت إليه، يسير يدل على كثير، وأنموذج يعرف باقي المحقرات من الذنوب[١٠٠]).

ثم لكل منصف أن يتأمل أمرين مهمين:

الأول: أن ذلك الوصف الذي وَصَفَ به من زَعَمَ أنه يجيز تلك الفِعْلة، يعلم كل أحد أنه وصف كاذب لا حقيقة له، وإنما يذكره في كِتَابه بعد أن فاهَ به في الواقع لغرض الإضحاك! كما تراه يتباهى بنقل السائل لكلامه في المجالس لذات الغرض! وقوله ذلك، ثم نقل السائل له في المجالس، ثم ذِكرُهُ له في كتابه، كلها تدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم الصحيح الذي أخرجه أحمد[١٠١] وأبو داود[١٠٢] والترمذي والنسائي وغيرهم: (ويل للذي يُحدِّث فيكذب ليُضحِك به القوم، ويل له! ويل له!).

قال المناوي رحمه الله: (كرره إيذاناً بشدة هلكته، وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إليه استجلاب الضحك الذي يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونة، كان أقبح القبائح! ومن ثمَّ قال

١٠٠ صيد الخاطر (ص١٤٩).

١٠١ المسند (٢٤٤/٣٣).

١٠٢ السنن (٤٩٩٠).

الحكماء: إيراد المضحكات على سبيل السخف نهاية القباحة[١٠٣]).

قلت: فإذا كان استجلاب الضحك بالكذب المجرد أقبح القبائح! فكيف باستجلاب الضحك بالكذب مع البذاءة والفحش؟!!

الأمر الثاني: لم يذكر (المحقق المدقق!) أي مراجعةٍ له للسائل تُفيد تَثَبُّتَه في حقيقة ما نُسِبَ إلى الرجل قبل أن يجودَ بتلك الأوصاف! وكأنه ما دام المُقابل مرجئاً أو جهمياً أو مُخالفاً أياً كان فلا حاجة للتثبت، ولا يهمنا إلا الإسقاط وإعلاء النكير والتشويه ولو في مقام المحتملات!!

مع أن السائل قد يكون سمع من الرجل كلاماً لم يفهمه على وجهه، وهذا يحصل كثيراً، وفي تلك المسألة بالذات، وأعرفُ من عَرَضَ له الكلامُ من أهل العلم على قول الله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...}[البقرة: ٢٢٣]، فقال في كلامه: (يجوز للرجل أن يأتي أهله كيفما شاء من الأمام والخلف...إلخ)، ففهم بعض من سمع كلامه أنه يُجِيز إتيان أدبار النساء! واستنكروا ذلك استنكاراً شديداً! ولما روجِعَ الشيخ وسُئل عن الأمر تبين أن أولئك من أفهامهم أُتوا! واتضح لهم سوء فهمهم فعادوا على أنفسهم باللائمة!!

وهناك ألفاظ مختلفة –لاحاجة لذكرها– قد تُقال في هذه المسألة ويراد بها عند أهل العلم معنىً صحيحاً وصورةً جائزةً ويفهمها البسيط والناشئ على المعنى الخطأ!

قد يقول معترض بعد هذا: لعل ذلك الذي نُسِبَ له تجويز ذلك الفعل مُشتهِرٌ عنه تجويز هذا الأمر، فلا حاجة لمراجعة السائل واستفصاله فيه!

فأقول: مع ظني بأن الأمر على خلافِ هذا، فحتى لو صحَّ فهذا لا يشفع لترك الإنكار على كاتب ذلك الكلام الفاحش، إذ ما أدرى قارئ كلامه عن هذا؟!

وكل ناظر ليس يرى في كلامه إلا الإسراع في البذاءة والفُحش عقب كلام السائل مباشرة دون توسط استفصال! وهذا بِحدِّ ذاته –لو صحَّ الاعتراض– بابٌ من أبواب تجرئةِ من يقرأ كلامه على الإنكار في المُحتملات، دون طَرْقِ باب تحقق الإثبات!

١٢– ويقول: (وشدَّد بقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)} وحذَّر تعالى من الطُّغيان في ذلك الميزان . بغُلوٍّ وعُتُوٍّ، أو بتقصيرٍ وتفريطٍ وفَسْو . . {أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)}).

حسبنا الله ونعم الوكيل! أن ترى الفحش والبذاءة سمة سوء لهذا الرجل في كتاباته وردوده على الناس، فهذا أمر مع قباحته لا يستغرب عليه! فأما أن ترى استعمال الفُحش والبذاءة في مقام بيان مراد الله تعالى من كلامه فهذه طامة لا يجترؤ عليها من يقدر الله حق قدره، وإذا لم يكن المُقدِم عليها منزوع الحياء فَمَنْ؟!

---

١٠٣ فيض القدير (٦/٣٦٨).

فما علاقة تلك اللفظة الأخيرة يا محترف البذاء بالطغيان في الميزان؟! وهل هي مراد الله تعالى الرحيم الرحمن، من كلامه الذي هو أفصح البيان؟!

أخبرنا في أي دينٍ ساغ لك تفسير كلام الله العليِّ العليم، باستعمال لفظ السوء والبذا الذميم؟! اللهم إلا في دين إبليس المدحورِ الرجيم!!

ويحك يا هذا ألا تُبصِر! وعن ذلك الفُحش تنكفُّ وتُقصِر! فأي جناية جنيت! وأي مهلكة برجلك أتيت! وأي هوي بنفسك هويْت!!!

هذه أمثلة يسيرة –وبين يدي غيرها– للناظرين، تعرفهم بحقيقة من ينسب نفسه إلى العلماء المحققين، بينما يتصف بصفات السوقة والمنحطين! نعوذ بالله من هذا الداء المشين.

الصفة الثالثة:

التطاول على الأئمة وعلى أهل العلم الصادقين! ووصفهم بالعظائم والقول المشين! ليس من وراء حجة وحق مبين، بل من وراء فهم عليل، أو مرضٍ في النفس رذيل!

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام أحمد[١٠٤] وأبو داود[١٠٥] وغيرهما، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله رَدْغَة الخبال، حتى يخرج مما قال!).

قال الخطابي رحمه الله: (الردغة: الوحل الشديد، ويقال: ارتدغ الرجل إذا ارتطم في الوحل، وجاء في تفسير ردغة الخبال أنها عصارة أهل النار[١٠٦]).

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام أحمد[١٠٧] وأبو داود[١٠٨] واللفظ له من حديث سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق).

قال المناوي رحمه الله: ((إن من أربى الربا): أي أكثره وبالاً وأشده تحريماً، (الاستطالة في عرض المسلم): أي احتقاره والترفع عليه والوقيعة فيه، لأن العرض شرعاً وعقلاً أعز على النفس من المال وأعظم خطراً، والربا الزيادة والارتفاع والكثرة، والاستطالة والتطاول احتقار الناس والترفع عليهم، وعُبر عنه بلفظ الربا لأن المعتدي يضع عرضه ثم يستزيد عليه، ونبه بقوله: (بغير حق) على حل استباحة العرض في مواضع مخصوصة، كجرح الشاهد، وذكر مساوئ الخاطب،

---

١٠٤ المسند (٩/٢٨٣).

١٠٥ السنن (٣٥٩٧).

١٠٦ معالم السنن (٤/١٦٨).

١٠٧ المسند (٣/١٩٠).

١٠٨ السنن (٤٨٧٦).

وقول الدائن في المماطل مطلني حقي، ونحو ذلك مما هو مبين في الفروع[١٠٩])

وأخرج الحاكم في مستدركه[١١٠] من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الربا ثلاثة وسبعون باباً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وأخرج الطبراني في الأوسط[١١١] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا اثنان وسبعون باباً، أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وأربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه).

قال الهيثمي رحمه الله: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمر بن راشد، وثقه العجلي وضعفه جمهور الأئمة[١١٢]).

قلت: وللحديث شواهد، منها ما قبله، وانظر باقيها في السلسلة الصحيحة (١٨٧١)، للشيخ الألباني رحمه الله.

ففي هذه الأحاديث وغيرها دلالة على أن الاستطالة على أعراض المسلمين بغير حق من أكبر الكبائر وأشنعها، وهي بقدر جرمِ أعظم أبواب الربا الذي آذن الله ورسوله أصحابَه بالحرب! وإذا كان أدنى أبواب الربا كإتيان الرجل أمه!! فكيف بأعلاها!!

فما أقبحها وأبشعها تلك الجريمة التي تفوق في الإثم غشيان الأم! ويالها من داهية فظيعة عظيمة! تالله ما أخسره وأبأسه من يجد غداً صحيفته بها ملآ!! نعوذ بالله من الخسران والحرمان.

قال الشوكاني رحمه الله في شرحه لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية)، قال الشوكاني: ((أشد من ست وثلاثين. . . إلخ) هذا يدل على أن معصية الربا من أشد المعاصي، لأن المعصية التي تعدل معصية الزنا التي هي في غاية الفظاعة والشناعة بمقدار العدد المذكور بل أشد منها، لا شك أنها قد تجاوزت الحد في القبح! وأقبح منها استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم، ولهذا جعلها الشارع أربى الربا، وبُعْداً لرجل يتكلم بالكلمة التي لا يجد لها لذة ولا تزيد في ماله ولا جاهه، فيكون إثمه عند الله أشد من إثم من زنى ستاً وثلاثين زنية! هذا ما لا يصنعه بنفسه عاقل!! نسأل الله السلامة[١١٣]).

قلت: وفي كتابات الجزائري عبدالإله مواضع ومواضع من الاستطالة على الأئمة والعلماء والوقيعة فيهم بغير حق! ما أحرى أن يقال عندها كلمة ابن عساكر رحمه الله الشهيرة: (إن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع

---

١٠٩ فيض القدير (٢/٥٣١).

١١٠ (٢٢٥٩).

١١١ (٧١٥١).

١١٢ مجمع الزوائد (٤/١١٧).

١١٣ نيل الأوطار (١٠/١٥١).

وخيم، والاختلاق على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم..[١١٤]).

ودونك على هذه الصفة أمثلة:

١- يقول في كتابه (التبصير): (فالنصوص في كفر تارك الصلاة جليَّة، ودلائل ظاهرة عليَّة، ولا يستطيع أحد أَن يردَّها، أو بشبهة دليل يدفعها، اللَّهم إلَّا بداء «التَّجهم» و«الإرجاء» الخبيث، والبحث في الكنَّاسات ببحثٍ حثيث، لشبهة استحكمت، ولعلَّة دمَّرت، فمَن أوجب «الجُحد»-كذا- في كفر تارك الصلاة أو أنَّ التَّرك التَّكاسلي لا يوجب التَّكفير، فذاك بسبب ذاك الدَّاء المُفقد للمناعة الحسّية، والمُوجب للنوم والشَّخير، فداء «التَّجهم» و«الإرجاء» يمنع تَمَكُّن الاستقباح في «القلب»، فهو دعوة إلىٰ إباحية بتأصيل!!).

قال أبو الحسن غفر الله له: فانظر كيف يستطيل على طائفة من أجلّة علماء أهل السنة لا يقولون بكفر تارك الصلاة ويرميهم بالإرجاء! ولا يتصور بفهمه العليل أن يصدُرَ القول بعدم كفر تارك الصلاة إلا عن أصول إرجائية!! وهو بهذا يشطب على أئمة أفذاذ ويخرجهم من دائرة أهل السنة!! وهذا هو الغلو بعينه كما سترى في الرد عليه في الفصل الثاني إن شاء الله!

وليُتنبه هنا إلى أن محل الإنكار ليس هو القول بتكفير تارك الصلاة، معاذ الله! فهذا ما أدين الله به وأعتقد صوابه وهو إجماع الصحابة، إنما محله سحْبُ وصف الإرجاء على كل من لم يقل بكفر تاركها، وهذا هو الفساد والاستطالة والغلو بعينها!!

٢- ويقول في (التبصير) : (فـ«المُكَفِّرُ لِذَاته» علّق . في هذه الآية الكريمة . ؛ بوجود حُكم اللَّه تعالى ثمَّ «التَّولي» أو «الإعراض» عنه، وبهذا القيد . المخصّص للسَّببية . والذي أظهرته «الآية الكريمة»، تعلم أنَّ مَن قال بعدم استرجاع الحقوق واستخلاص سلبها من الظالم؛ لعدم وجود حكم اللَّه، وظنَّ ذلك من تحقيق التَّوحيد، قلنا له: هذا عينُ الغُلوّ والعُتوّ في إخراج المَنَاط عن أصله، الذي وضعه المولىٰ سبحانه وتعالى بنفسه، وتعدي عليه . بذاك الادّعاء . ، والاصطباح في صفرة -كذا- «الصُّفرية» و«الأزارقة»، والتَّشبع بالتَّبدُّع، فليس فيه تحقيق توحيد، وإنما شبهة عنيد، لا يرضىٰ ما رضاه اللَّه من المَطلب، ويريد أَن يزيد في المَسْلَب!!).

قلت: هذا الكلام الفاسد والأوصاف القبيحة تطال في أول من تطاله الشيخ أبا محمد المقدسي فك الله أسره! وهذا المتطاول على العلماء أول من يعلم كذِبَ أوصافه هذه التي وصف بها من يُحرِّم التحاكم إلى القوانين الوضعية لاسترجاع سليب الحقوق! وهو شهد الله أولى بتلك الأوصاف ممن يرميه بها!!

وتنبه إلى أنه لم يضبط ألفاظه حتى في وصف قول الآخرين، وتعدى عليهم، فقوله: (مَن قال بعدم استرجاع الحقوق واستخلاص سلبها من الظالم؛ لعدم وجود حكم اللَّه)، لا يقول بهذا المحدود من كلامه أحد، فاسترجاع الحقوق من الظلمة جائز وُجِد حكم الله أم لم يوجد، إنما محل البحث هو استرجاعها بواسطة المحاكم الوضعية عند غياب حكم الله،

١١٤ تبيين كذب المفتري (ص٢٩).

وهذا غير ذاك!

ولعلّي أعرض لكلامه هذا بالبيان في الفصل الثاني إن شاء الله.

٣- ومن صور تطاول أبي عزير على الأئمة وصفه للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري رحمه الله بالإرجاء! ويكفي العاقل ليعرف عِظمَ ما أقدمَ عليه أن يعلم أنه غير مسبوق بهذا الوصف من أحد من أهل العلم! فهل جهلوه جميعاً وعَلِمَهُ هذا الخالف في آخر الزمان؟!! أم هي جناية من جناياته التي يسربلها بسربال التحقيق والتدقيق والعرفان؟!! وهي في حقيقتها جهلٌ وجور وتطفيف في الميزان!!

ومع الأسف الشديد فالرجل مع قلة أدبه مع هذا الإمام الجهبذ واستطالته عليه، فقد ضم إلى هذا عدم الأمانة العلمية! ببتره لأقوال الإمام، وإخراجها عن سياقاتها! وتحميلها من المعاني ما يهواه فقط! ليَسْلَم له وصفه ذلك الذي تبلَّد له غاية التبلد!

ولعمر الله لصنيعه هذا من أفسد ما وقفتُ عليه في التعامل مع كلام أهل العلم، وأنَّى يسلم بتلك المنهجية عالم!! ولو شاء غِرٌ أن يقلب صفحات كتب الكبار ليستخرج منها ما يُحَمِّله أسوء الفهم لما عجز!!

وعلى كل حال فمناقشة ما كتبه هذا الرجل حول الإمام السُنيِّ الجليل ابن عبدالبر رحمه الله في مواضع من منشوراته وكتاباته يحتاج إلى مصنف مستقل، وعسى أن أفرغ له إن لم يسبقني إليه سابق!

٤- ومن صور تطاوله على أهل العلم التي لا يمكن لعاقل تفهم صدورها إلا عن نفسية عليلة مريضة! هو كلامه السيء البذيء على الشيخ الدكتور محمد أبو رحيم، فبعد أن كان الشيخ أبو رحيم مُقدِّماً لكتبه مُقدَّماً، أصبح عدواً حاقداً مُذمماً!!

وبعدَ أن كان يَسِمُه على طُرَّة الكتاب بـ(فضيلة الشيخ الدكتور)، غدا يقول عنه: (يدعي حوز الدكترة!) كذا بكل سُفور!! ويصفه بزجوة البضاعة والخوف من الحلبي المدحور!!

وبعد أن تجوَّه بتقديماته للظهور، أصبح يصمه هذا العاقّ: بأنه (في الباطل يصول ويدور!!)، نعوذ بالله من العقوق والفُجور.

وأوغل في البذا والشين، وادعى أن الشيخ (نفخ ودجه وهزّ بطنه!) ثم في الصفحة التي تليها يقول بأنه لا يعرف صورته ولا رأى منه العينين[١١٥]!!! فأي فحش هذا ومين!!

بل جاوز الحد في الأذى والذم، فنعت أبا رحيم بأنه (لم يتربَّ قبل أن يتعلم)!!

نعوذ بالله من بذيء الكلام، ومن الفجور في الخصام، وإني لموقن أن وراء الأكمة ما وراءها، وكأني بأبي رحيم يتمثل

---

١١٥ انظر هذه وما سبقها ويلحقها في لقائه مع شبكة التحدي (ص١٣٣-١٣٤).

بقول الشاعر:

يجنـــي عليـــك لغيـــر ذنـــب باغيـــاً والبغـــي جنّـــاء علـــى الأطهـــار
مـــن كـــان جـــار الســـوء يومـــاً جـــاره عُـــدَّت فضـــائله مـــن الأوزار

في الصحيحن وغيرهما واللفظ للبخاري من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع خلال من كن فيه كان منافقاً خالصاً: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها).

قال ملا القاري رحمه الله: (وإذا خاصم فجر: أي شتم ورمى بالأشياء القبيحة[١١٦]).

وقال المناوي رحمه الله: (وإذا خاصم فجر: مال في الخصومة عن الحق وقال الباطل[١١٧]).

ومهما بالغ واستزاد هذا الرجل من التطاول على عباد الله، فأقواله لا ولن يُضيع رب العالمين منها شيئاً، {فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)} [طه]، فليُقِلَّ أو ليستكثر، وسيرى بأم عينيه من يستطيل على العباد وعلى أهل الفضل والعلم عاقبة بغيه في الدنيا قبل الآخرة.

لكـــلٍ بغيـــهُ ولمـــن تعـــدى جـــزاء البغـــي مقضـــياً لزامـــا

٥- ومن تلك الصور، قوله: (فالشيخ ابن عثيمين رحمه الله أعدّه من المشايخ الحنابلة اليوم الذين أكثروا من التقليد، وعجزوا عن التفنيد، للشبهات المثارة اليوم حول التوحيد، والكفر بالنديد، واستعصت على أفهامهم، لذا لم يحرروا فيها بأقلامهم، بل استشكلوا كلام أئمتهم[١١٨]).

أقول: مع ما بين السلفية الجهادية -والعبدُ الضعيف من أبنائها- وبين الشيخ العثيمين رحمه الله من خلافٍ أغلَبُهُ خلافٌ في فقه الواقع، إلا أنه لا يشك أحد في سعة علمية الشيخ وتبحره في شتى صنوف العلم، وكون الشيخ رحمه الله زلّ وأخطأ في بعض المسائل، فهذا لا يُصيّرُ صوابه في أكثرها جهلاً وعجزاً وخطأً، ولا يقول بهذا إلا جاهلٌ أو حاسدٌ أو مجحفٌ عديمُ إنصاف!

ودعوى أن الشيخ مُكثرٌ من التقليد، كذب سافر لا يتجلبب بجلباب! وهل كان رحمه الله إلا واحداً ممن كسر ذلك الباب!!

والزعم بأنه عجز عن تفنيد الشبهات المثارة اليوم حول التوحيد، وأنها استعصت على فهمه، وصف جائر ظالم غير

---

١١٦ مرقاة المفاتيح (١/١٢٨).

١١٧ فيض القدير (١/٤٦٣).

١١٨ لقاء التحدي (ص٤٤).

سديد!!

وكذلك بقية أوصافه يخال من يسمعها أن الموصوف من أولئك الذين تشبعوا وامتلأوا بشبهات المتكلمين، فوقفوا لأجلها أمام نصوص الوحي وكلام السلف متشككين حائرين!!

وليس مع هذا المتطاول في آخر الأمر إلا أن الشيخ أخطأ في مسألة كذا وفَحُشَ غلطه في مسألة كذا، ومُقدماً نُسَلِّم بهذا وغيره، فكان ماذا؟!! وأين هذا من زعمه ذا؟!!!

٦- ومنها قوله: (بل أقول أن حنابلة الجزيرة اليوم، ضعفت همتهم في التحقيق العلمي، والاستخراج للقريح الفهمي، فلم نعد نرى بعد العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله من اجتهد في ذلك، مع وجود الإمكانات الضخمة لهم من مخطوطات ومطبوعات، ووسع الرزق وجودة المكيفات، وإنما أكثروا من الجمع المصطلحي، وعجزوا في الدفع الشُّبهي، لذا تجدهم يطلبون لها الاستشكال لما عجزوا عن فهمها، بنصوص لا تلتئم في دفعها، بل سكتوا عن أناس طالوا ميراث أئمتهم بالتحريف والتدليس والتلبيس الإبليسي، كحاتم العوني الجهمي وغيره، ومنهم من رد بالعاطفة في دفع تلك الافتتاءات على أئمتهم الساقطة، وما ظهر علي حلبي الجهمي الأثري بين المعكوفتين، وغيره إلا بتلك التدليسات، بل برد الكذب واضح فيها، إلا بسبب ضعفهم فيها!![١١٩]).

لا أدري والله ماذا يحملُ هذا الرجلُ في صدرهِ على الحنابلة، حتى يدفعه ذلك الحِمْلُ على هذه التصرفات (الدونكي شوتيه!) من خلف البحار!

مشايخ الجزيرة على وجه الخصوص لا أظن طالب علم في هذا الزمان يؤسس مكتبة له، إلا وكان لهم فيها حظ وافر لا يوازيه غيرهم من علماء شتى بقاع الأرض، وهذا أمر لا يجحده إلا مكابر!

ثم كل ما يمكن أن يؤخذ على رؤوسهم المشاهير من مآخذ، ففي غيرهم من أهل البلدان المختلفة ما هو أشد منها وأكثر!

ثم إن التحقيق العلمي لم يتوقف أو يضعف بموت العلامة محمد بن إبراهيم رحمه الله كما يدعي هذا المدعي، بل قام بعده من أهل العلم من علا كعبه في هذا المضمار، واستفاد منهم طلبة العلم في شتى الديار، وورَّثوا من العلم النافع أكثر مما ورَّثه الشيخ محمد بن إبراهيم، عليهم جميعاً رحمة الله، فإن كنتَ ممن يجحد فضائل الناس لِما وقعوا فيه من أخطاء شنيعة معلومة، فما أبناء السلفية الجهادية ومشايخها بجاحدين!

ثم إذا كنت لم ترَ بعدَ الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله من يحمل الراية كما حملها أو خيراً من ذلك، فمن أنت لتكون رؤيتك أو عدمها برهاناً على الوجود أو العدم؟!!

وإذا كنت لا تسمع إلا لأولئك الذين يبرزهم إعلام الشر السعودي، وينفخ في أسمائهم، فليس ما سمعته هو كل شيء،

---

١١٩ لقاء التحدي (ص٤٥).

ومن كان هذا مبلغ علمه فلا يحقُّ له أن يتكلم!

لقد عرَّفتَ الناس بأنكَ أعمى لا ترى فِعلاً! وقد حجب بصرك ذلك الحِمْل الذي جرأك على هذا الكلام!!

وعسى إن كتب الله لك دخولاً إلى الجزيرة يوماً من الدهر، أن يُخبِّرَك صبيان الحنابلة بأسماء أفذاذ سيسطر سيرهم التاريخ بمداد من نور! وما العلامة الجهبذ عبدالرحمن الدوسري رحمه الله عنا ببعيد! وهذا إمام السلفية الجهادية حمود بن عقلا الشعيبي رحمه الله، وتلاميذه العلماء الأفذاذ فك الله أسرهم جميعاً! وغير هؤلاء وغيرهم ممن يعرفهم القاصي والداني، ويعمى عنهم الحاقد الشاني!! رحم الله من مات منهم، وفك أسر من أُسِر، وتولى بعنايته وحفظِهِ من ينتظر.

ثم تأمل في قوله: (مع وجود الإمكانات الضخمة لهم من مخطوطات ومطبوعات، ووسع الرزق وجودة المكيفات، وإنما أكثروا من الجمع المصطلحي، وعجزوا في الدفع الشُّبهي، لذا تجدهم يطلبون لها الاستشكال لما عجزوا عن فهمها، بنصوص لا تلتئم في دفعها).

فهذا تعميمُ ظالمٍ لا يعرف النصفة، وأهل العلم في الجزيرة منهم الغني ومنهم الفقير ومنهم بين بين، كغيرهم في سائر البلاد، ومنهم من تُغدق عليه الأموال ومنهم من لا دَخْلَ له إلا من عمل يده، ولو شِئت أن أسمي لسميت، فإطلاق هذه الأوصاف عليهم جملة من شأن المطففين والمُخْسِرين في الموازين، وهي كافية للدلالة على المخبوء الصدري الدفين!

ووصفهم جملة بتلك الأوصاف التجهيلية الكاذبة، إنما يستبطن الواصف من ورائها مدحاً مكشوفاً لنفسه كعادته، وتلك شنشنة نعرفها من ذي جذبة!

وإني لأتحداه أن يأتي بضلالة أو شبهة اشتهرت وعُلِمت لم يكن في علماء الجزيرة من يقول فيها بالحق، وعجزوا جميعاً عن دفعها وكشفها!

كان الأحرى بمن يكتب هذا الكلام أن يخجل على نفسه إذ يكتبه وهو هنالك يتنعم في الدنمارك، فكل الناس تعلم أن من يرفع قلمه لكتابة شطر كلمةِ حقٍ في الجزيرة لا يكاد يُنزِلُه إلا والخفافيش حول بيته!

ولكنه الحياء إذا نُزِع لم يبالي المرء بما يكتب، والله المستعان.

وقوله: (بل سكتوا عن أناس طالوا ميراث أئمتهم بالتحريف والتدليس والتلبيس الإبليسي، كحاتم العوني الجهمي وغيره، ومنهم من رد بالعاطفة في دفع تلك الافتتاءات– كذا– على أئمتهم الساقطة).

أقول: مشكلة هذا النوع من البشر أنه إذا قرأ كتاباً أو كتابين، ظن أنه حاز العلم كله! وأحاط بالأمر من كل جوانبه! وهو في حقيقة الأمر ما رأى من العلم إلا الشِبرَ الأول كما وصفه الإمام الشعبي رحمه الله.

لا أدري من أين خرج بهذا الاستقراء الكلي (بل سكتوا)، وهو هنالك خلف البحار؟!! وما أدراه بالذي يحدث في تلك الأمصار؟!

على كل حال آن لهذا الرجل أن يلزم غرزه، ويستحيي على نفسه، فقد زُهقت أباطيل العوني برد رائع طُبع مرتين يعرفه جُلّ طلبة العلم قبل أربع سنوات أو تزيد!!! أي قبل أن يرد هذا الجزائري على العوني بثلاث سنوات!!!

فإن كنت لا تعلم فاسأل قبل أن تتكلم وتتعالم!!

ومع هذا فما كل من تكلم بالباطل يتنزل أهل العلم للرد عليه، ومن لا يفهم هذا فالحديث معه ضياع، فكما قيل:

لو كل كلبٍ عوا ألقمته حجراً ..... لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

وقوله: (وما ظهر علي حلبي الجهمي الأثري بين المعكوفتين، وغيره إلا بتلك التدليسات، بل برد الكذب واضح فيها، إلا بسبب ضعفهم فيها!!).

إذا كان الحلبي اعتمد على كلام بعضهم وحمّله باطله، فقد اعتمد هو وغيره على كلام من هو خير منهم وحمّله باطله، فكان ماذا؟!

ثم لماذا تجعل البعض كلاً؟! وإذا ضعُفَ واحد أو اثنان في بعض المسائل فهل هذا ضعف للكل أو لحنابلة الجزيرة كما تدعي؟! ثم لماذا لا تذكر للناس مواقف أهل العلم الصادقين من الحلبي وأمثاله وأنت تتمظهر بالدراية التامة بما يحدث في الجزيرة؟! بل حتى أولئك المشايخ الرسميين وجهوا للحلبي ضربة من أوجع الضربات التي تلقاها، فلماذا تتعامى عن هذا أيها الأمين المنصف؟!!

٧- ومن صور تطاوله على العلماء، تطاوله على الشيخ العلامة أبي قتادة فك الله أسره، وهذا ما نحن فيه!

مع تحيات إخوانكم في

مؤسسة المأسدة الإعلامية

(صوت شبكة شموخ الإسلام)

ادعوا لإخوانكم